الفصل الأول
مصطلحات سوسيولوجية

الحياة اليومية

التنشئة والنشأة

الثقافة والتربية

التحيز والتميز

الأعراف والانحراف

obeikandl.com

obeikandl.com

المصطلح الأول
الحياة اليومية

كيف يعرف الناس ما يعرفونه في حياتهم اليومية؟.

كيف يدركون الأشياء ويفاضلون بينها؟ وكيف يُبنى سلوكهم اليومي في ضوئها؟.

تشير معظم النظريات الاجتماعية كيف يشرع الأفراد والجماعات في الحصول على ما يريدونه من خلال ما يعرف بنظرية «الفعل الاجتماعي» الذي يتم بدوره بناء على الحاجة والتفاعلية، بمعنى أن البشر يتصرّفون حيال الأشياء على أساس ما تعنيه لهم وأن هذه المعاني هي نتاج للتفاعل الاجتماعي في المجتمع الإنساني يتم تداولها عبر عملية تأويل يستخدمها الفرد في تعامله. لكن نظريات أخرى افترضت أن هناك منظومة من الإدراكات والاستعدادات والتصورات المكتسبة حتى تصبح بمثابة «القواعد المُولّدة للممارسات» (HABITUS)[1]، أي ذلك النزوع الشخصي الذي يؤطر استعداداتنا دون افتراض وعي كامل من قبلنا لإطاعة نماذج معينة من السلوك والتفكير.

إزاء هذه التوجهات النظرية يمكن فهم أوضاع التفاعل الاجتماعي على أنه دراسة الحياة اليومية ووفق هذا النوع من الدراسة (**والذي يسمى في العادة بعلم الاجتماع المصغر/ الميكرو سوسيولوجي**). يجري تحليل الأوضاع

(1) الأبيتوس: مفهوم يعود ببدايته إلى عالم الاجتماع الفرنسي بيار بورديو حين أخذ يقارب مفهوم إنتاج الأفكار وشروط إعادة إنتاجها وميزة هذا المفهوم ـ المصطلح أنه بمثابة بنية ذهنية ذات بعد معرفي تدفع بصاحبها إلى إطاعة نماذج معينة من السلوك دونما أن تفترض وعيًا كاملًا بها).

obeikandl.com

والسياقات والسلوك الاجتماعي على مستوى الأفراد أو الجماعات الصغيرة، لنتأمل مثلًا بعض صيغ التفاعل والمواجهة التي تتم في الأماكن التي يتجمّع فيها الآلاف من الناس (المدن) حيث نراهم يسيرون باتجاهين مختلفين كلٌّ إلى غايته بسرعة وانهماك دون أن يعير أحدهم اهتمامًا للآخر، في هذه الأوضاع يحدث ما يسميه أرفنغ غوفمان «**الإغفال المهذب**»، هذا الموقف لا يعني تجاهل الآخرين كليًا ولكن يعني امتناع الناس عن اقتحام حياة الآخرين وأنماط سلوكهم المعتادة في وضع معين[1].

يعتبر علماء الاجتماع دراسة الأحداث اليومية موضوعات جديرة بالاستقصاء لأسباب منها:

1 ـ **تبين أشكال التفاعل الاجتماعي**، الذي يعكس بدوره الجانب الأكبر من نشاطات الحياة اليومية، لاحظ مثلًا كيف ترتب أمورك يومًا بيوم أو أسبوعًا بأسبوع أو سنة بعد أخرى، كيف تنهض صباحًا لتذهب إلى عملك/ جامعتك/ ثم تعود وتمارس واجباتك ومواعيد طعامك ونومك أي أنك تقوم بأنماط سلوك متماثلة في وتيرة معينة، حتى وإن حدث «اختراقات» مثل التخرج أو البدء بعمل جديد أو الارتباط بشريك، فإنه سرعان ما نعود إلى الروتين ذاته، **فمن أوجد هذه السيرورة وكيف؟**.

2 . **تبين مظاهر إعادة التشكيل الواقع**، من خلال ما يبتدعه البشر ويبتكرونه من أفعال خلاقة تسهم في إعادة تشكيل واقعهم مما يفرض أنماط سلوك اجتماعي جديدة، كحال الطلاب الجدد الذين ينزلون من قراهم إلى المدن الكبيرة كيف أنهم مع الوقت تتغير بعض سلوكياتهم لجهة عادات طعامهم/ طريقة تخاطبهم/ نمط علاقاتهم بالآخرين/ شكل لباسهم. إنهم يغيّرون ويعيدون تشكيل تصوراتهم كي لا يبقوا غرباء.

3 . **تبين فرص التوقعات المنتظرة والمدركة**، في مناخات التواصل السائدة يفترض أن ندرك أفعالها مسبقًا قبل أن تستفز دفاعات غير مقبولة قد تعيق

(1) أنتوني غدنز، علم الاجتماع، المنظمة العربية للترجمة، توزيع مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، 2005.

عملية التواصل، وأن تراعي الحساسيات الثقافية للشخص الآخر بطريقة دافئة ومحترمة. مثلما ينصح به المسافرون والغرباء باتباع قاعدة: **عندما تكون في روما... افعل كما يفعل أهل روما**، التي تساعد كثيرًا على تفادي أي ظروف حرجة.

في كثير من أنماط السلوك المعتاد التي تتضمنها الحياة اليومية هناك العديد من عمليات التفاعل المستمر التي تتجلى من خلال تعابيرنا بالكلمات والإيحاءات والتصرفات في شكل الاتصالات الشفهية وغير الشفهية (حركات الجسد)، يصطلح على تعريفها ب «قواعد اجتماعية للحياة العادية»، نستعرض أبرز وجوهها:

1) وتيرة التوقعات:

في أي موقف يجمع اثنين أو أكثر من الأفراد يتكوّن لدى كل واحد منهم نوعًا من الإدراك لما يتوقعه غيره منه، هناك توقعات متبادلة للسلوك في مختلف مواقف الحياة اليومية وعندما تسيرعلى وتيرتها المعتادة ندخل السياق المنظم بناءً على تفاهمات قائمة. أما عندما لا يتم التوقع المفترض نصح في سوء تقدير يقود إلى خلل اجتماعي وعدم تجاوب في العلاقات القائمة، عندما أقول لك لماذا تصرفت مع فلان بالشكل الذي تصرفت عليه؟ تجيب بسرعة: إننا متفاهمون على هذا الشيء!! وكأنك هنا تؤكد وتمارس بناء على قواعد غير معلنة واعتبارات مسبقة، مما يعني أن المحادثات اليومية تفترض مسبقًا وجود تفاهمات مشتركة انسجامًا مع المعارف المتبادلة بين بني البشر، والتي تكوّنت نتيجة التواصل اليومي، كما هو الحال عندما تسأل شخصًا بطريقة عابرة: كيف حالك؟ فمن المتوقع بأن يجيب بعبارة قصيرة مثل: الحمد لله.. وغير هذه الإجابة يستدعي استفسارات، وعليه يظهر سياق حياة الناس كأنه مستقر على معانٍ ودلالات ومشاركة في المحتوى الاجتماعي للحياة اليومية.

وإذا أردنا أن نعرض لموضع القسم أو الحلف في المسار اليومي لحياة الناس، فإنه غالبًا ما يرتبط بالبعد الديني مضمونًا ودلالة، حيث يتم في القسَم اللفظ باسم الجلالة (الله) أو بمراجع إيمانية تتراتب أهميةً ونوعًا بتفاوت

مستوى اعتقاد المعتنق وسبل تعبيره، فالقسَم المشترك عند أغلب المسيحيين في لبنان هو «وحياة السيدة»، بينما يُجمع المسلمون في كل المذاهب على اعتبار أن كل قسم بغير الله حرام، أكان بالنبي ﷺ أو بسائر الرسل والأولياء، والحلف الحقيقي ينبغي أن يكون بلفظ الجلالة (والله) مجرّدًا من أيّة صفة اتباعية لاحقة. .وثمة تفاهم قائم بين اللبنانيين على مصطلح القسم والحلف يوشك أن يكون واحدًا على اختلاف طوائفهم ومناطقهم، فالكل يحلف بالله العظيم أو برب السماء أو باستخدام كلمة «الله وكيل».

وينبئ رصد مناسبات الاستعمال اليومي للتعابير الدينية في الممارسات الشعبية عن انتشار هذه التعابير وتغلغلها بين الناس بناءً على تفاهمات قائمة، وتأخذ بالتنوع والشمول حتى تكاد تغطي أغلب مناسبات الكلام في مواقف الحياة اليومية: الموت/ الفرح/ التحية/ التوسل/ الشكر/ المرض/ الشر/ رد العين/ الضيق/ الظلم/ الاستقبال/ الرزق/ الطعام/ البحث عن غرض ما/ الخطر/ الشماتة/ الذل/ المصيبة/ تقبل الأمر الواقع. . مع هذه المواقف هناك مرادفات كلامية توافَق المجتمع على تنسيقها وإنتاجها ووضعها بتصرف الأفراد ملبّيةً بذلك حاجاتهم التعبيرية المتنوعة، وفي مقاربة لهذا الموضوع نورد ما كتبه أستاذ الألسنية في الجامعة اللبنانية (نادر سراج) ضمن بحث بعنوان: التراث الديني في الخطاب العربي اليومي[1]. الذي يجد أن لهذه التعابير وظائف عديدة بين النفسي والاجتماعي والإيماني والاقتصادي يمكن تصنيفها في الأطر التالية:

1 . **النفسية الاجتماعية**: لتكييف الإنسان مع واقعه اليومي، لاستعادة توازنه النفسي ولتوفير الاعتبار الذاتي كقولهم: الله بيعوّض، الله بيعين. .

2 . **التوكيد الوظيفي**، أي إثبات السلطة الدينية وتضخيم الذات باللجوء إلى قسم وحلفان كدغدغة للعواطف الدينية المتفاهم عليها كقولهم: وحياة حجتي، وحياة اللي زرته، ورب العالمين، ورجعة الإمام. .

(1) من مقالة له في صحيفة السفير اللبنانية (9/ 10/ 1989).

3 ـ **الالتفافية واللامباشرة**، عبر استغلال الدين عن طريق اعتماد مصطلحاته وتزيين الخطاب بواسطته وتضمين الكلام بكثرة الحلف، لإيصال رسائل ذات أغراض أخرى مثل: وحياة ال... إيدي عالكتاب، بجاه النبي...

4 ـ **الدينية الإيمانية**، وغالبًا ما تتم في حالات التخفيف من الهلع، والتلطيف والاحتماء من مفاجآت المستقبل وغدر الزمان وحدّة الكوارث والمخاوف والقلق، ومن التعابير: الله قدّر ولطف/ الله ينجينا من الأعظم/ بسم الصليب / بسم الخمس حدود/ يا عدرا / يا رب سترك..

وهكذا يمكن للمصطلحات الدينية أن تستخدم أشكالًا تعبيرية عدة منها الشفوي ومنها الكتابي ومنها ما يُدرج في استهلال المراسلات وخواتمها، ومنها ما يلصقه الناس على ممتلكاتهم.. ومنها ما يتلفظه الناس عفوًا كقولهم: إن شاء الله/ اسم الله/ كثّر خير الله/ مثل ما الله بيريد.. كأنها تفاهمات يومية قائمة تنبئ عن حالة إيمانية.

2) أسلوب التخاطب:

إن دراسة الكلام اليومي تُظهر مدى الحكم على أداء الناس ومستوياتهم، بل تنبئ أكثر عن مكنونات الذات لتترك مؤثراتها في أبعاد التواصل اليومي، فالاستفزاز ورد الفعل الانفعالي لا تحدث إلّا بناءً على طريقة تخاطب أحدهم لآخر بطريقة غير متفاهمة، وتعكس التالي سياقات اجتماعية عدة، فلو تأملنا مثلًا بمستوى الكلام المتداول بين الناس لوجدنا أساليب متنوعة، كما في الأوجه التالية:

1 ـ من يحدثك على أنه يودّك وعندما تدير ظهرك لا يعرفك، يتحدث عنك لمن يعطيه أذنه، إنهم ذوو الوجهين.

2 ـ من يحيرك أمره ولا تعرف فيه الصح من الخطأ يستغلك ماكرًا للوصول إلى أهدافه إنه الانتهازي.

3 ـ من يحدثك دائمًا بسلبية ويصور لك الأمور أن لا أفق لها، إنهم الضبابيون.

4 ـ من يتحدث غير مبال بأي معيار أخلاقي ويتصرف دون تأنيب ضمير، إنهم الرديئون.

5 ـ من يظهر عليه الهدوء في الحديث وفي لحظة ما يفقد اتزانه ويثور، إنه الهائج.

6 ـ من يتلفظ بكلام بذيء ولا يذكر أحدًا بخير كل حديثه مفردات القدح والذم والشتائم، إنه السّفيه.

7 ـ من يتخلل حديثه دومًا تأفف/ تململ/ تبرم... إنه السئم.

8 ـ من يحدث ويهذر ويبيعك كلام ولا شيء سوى الكلام.. ويدّعي أنه يعرف كل شيء، إنه المدعي.

9 ـ من يحدث معتقدًا وكأنه الأفضل والأذكى والأقدر والأكثر ثراء ويتصرف وفق ذهنية السوبر، إنه المتعال.

إن أسلوب الحديث قد يكون طريقة تعبيرخاصة تنم عن شخصية محددة، إلا أنه في سياقات كثيرة يعكس طريقة التفاعل الاجتماعي مع الناس وفق مستويات الكلام الذي ينطقون به، فالانجذاب أو النفور منبعهما أسلوب التخاطب، لكن البعد الأهم في أشكال الكلام هو الرمز الدال عليه باعتباره لغة.. واللغة بدورها كرموز دالة تتضمن معانٍ، والمعاني بدورها هي ما تشكل عالمنا الاجتماعي، كل ما يدور في العالم الاجتماعي رموز دالة ومعان: قطعة الخشب هي قطعة خشب ـ ككلمة ـ على أنها في المعنى تصبح: إما طاولة أو مكتب أو خزانة، في إشارة إلى الدور الذي تلعبه قطعة الخشب في عملية تفاعلنا.. وبهذا السياق يمكن فهم أشكال الكلام ليس من حيث صورته كحروف، وإنما من حيث طريقة لفظه/ مناسبات قوله/ أوقات استخدامه وأوجه الاحتمال التي يقصد منه، لهذا يقال: ما بين السطور، ما وراء الكلام، حيث المخبأ هو أكثر من مجرد كلمات بل مغازٍ ومعانٍ.

أشكال التواصل غير الكلامي: لماذا قراءة الإشارات ومعرفة الحركات موضوعًا هامًا من أشكال التواصل اليومي؟ يحتل الكلام واللغة المحكية بشكل طبيعي المكانة الأولى بين الناس، لذلك فإن فهم معاني الحركات ينحصر

دائمًا في الإشارات الاصطلاحية وبعض الحركات الموروثة، ومعرفة الكثير عن أشكال اللغة غير المحكية يعود لسبب أسلوبنا في الإصغاء، فنحن لسنا مدربين على أن نلتقط في الوقت نفسه فعلين مختلفين مثل المراقبة البصرية والإصغاء، أو أن نتابع مستويين حسيين (النطق والإحساس) لكن ثمة الآلاف من الإشارات والوضعيات الجسدية التي تترجم حرفيًّا مشاعرنا وانفعالاتنا بشكل لإرادي، وكل حركة تصبح علامة دالة على حالة تكتنف وعينا، فإذا تقبلنا فكرة أن المشاعر والأفكار التي تعمل في داخلنا إنما تحتاج إلى ما يعادلها للتوصل إلى توازن، نصبح هنا أمام أشكال متنوعة من التعبير غير اللفظي، وتظهر أهمية التعبيرات الجسدية والحركات العفوية بوضوح في مجال الإغواء عند النساء، فالمرأة التي تدرك أنها ملفتة للنظر لن تظهر جاذبيتها من خلال الملابس فقط، وإنما من خلال مشيتها وجلستها وحركاتها، كذلك تبين أن:

* **الابتسامة**: هي عند التحية أفضل ترحاب، وعند اللقاءات دليل انفتاح، وسفيرة السحر الذي يمكن أن يتمتع به الشخص، وإنها من أكثر الأسلحة فاعلية للتأثير على الآخر بهدف نيل إعجابه أو اجتذابه.

* **والذراعان**: تصالبهما يشير إلى: الانغلاق/ الرفض/ الابتعاد/ التحفظ، أما إرخائهما وعدم تشباكهما وراء الظهر دليل ثقة واستعداد.

* **والانحناء إلى الأمام عند المحادثة**: دليل اهتمام بمن يحدثك وتشجيع على متابعة الحديث.

* **أما المصافحة**: الدافئة والقوية دليل ود واحترام، فيما الباردة دليل لامبالاة وخجل.

* **وعن العيون**: يبدو النظر إلى الآخر عندما يحدثك دليل ثقة بالذات وصراحة، أما إشاحة النظر عنه فدليل حياء أو خجل أو قلة ثقة بالذات أو فظاظة (خاصة عندما يكلمك أحدهم..).

* **والعبوس والتجهم**، إشارة إلى عدم الموافقة والاستنكار.

* **ولمس الأنف** والنظر بعيدًا بدروه يشير أحيانًا إلى مراوغة يضمرها محدثك.

تدل الحركات المعبرة والإيماءات العفوية التي تصدر عن الجسم في واقع أمرها ترجمة حقيقية وفورية لما يدور في الذهن ويحركه الانفعال، لأن: **الحديث بين شخصين هو في الحقيقة بين «لاوعيين»** يحاول كل منهما استكشاف الآخر في غفلة من الوعي، وهكذا تختصر رؤية التواصل بين طرفين في إطارين: جوهر الاتصالات الكلامية الذي يقوم على المحادثة والتفكير والتخطيط والتعبير، وجوهر الاتصالات غير الكلامية الذي يقوم بدوره على الملاحظة، التأمل، التنبه، الإدراك، الإصغاء والتقييم.

3) طبيعة اللقاء:

تمثل اللقاءات شكلًا من أشكال التفاعل اليومي، فاللقاء حينما يكون مع الأصدقاء أو الأهل أو زملاء العمل هو **لقاء مركز**، أما حينما يكون مع الآخرين ـ العابرين ـ ممن لا نعرفهم وإنما يستوقفوننا لغاية ما، فاللقاء عندها لقاء غير مركز. .في مجمل اللقاءات هناك لحظة تواصل مفترضة واتجاه مسار لابد منه كي يحدث التفاعل. . تحكمه بالنهاية مؤشرات أخرى مثل الانتباه والاهتمام وقدر من التهذيب وحسن الإصغاء ومعايير الثقافة السائدة، (فالفرنسيين مثلًا ليس لديهم طبيعة لقاءات العمل كما هي لدى اليابانيين التي تكون إلى حد بعيد منضبطة ودقيقة وجدية، حيث يقضي بروتوكول التعامل الاجتماعي في اليابان: العمل أولًا، والعلاقات الشخصية تاليًا (أي لايكون هناك علاقات شخصية على حساب العمل وأي خصوصية في العلاقات أو الصحبة يجب أن تكون بعيدة عن أجواء العمل) أما في البيئة العربية فغالبًا ما يولي الناس أهمية قصوى للقاءات وإنشاء العلاقات حيث يرى كثيرون أنها أثمن معرفة. . إلا أن الذي يحدث في مجتمعاتنا العربية هو أنها مأخوذة كثيرًا بفكرة الاستغابة وهو الوجه الآخر للمسايرة، مما يعني أن مستويات التفاعل الاجتماعي لا تجري إلا على أساس التوافق الظاهري وقاعدة المجاملات وأشكال تعامل تكتنف في عمقها مشاعر حسد وعداء ومخاصمة ونزاع. وعليه نجد الفرد في طبيعة اللقاءات الاجتماعية لا يثق كثيرًا في كلام الآخرين لأنه يعي الستار الاجتماعي الذي يختبئ وراءه الآخر، وهذا ما يؤدي إلى تغليب الشك والتوجس وما يتعلق بنوايا الآخرين ودوافعهم.

لماذا يحدث مثل هذا التعامل، لأن العائلة العربية ـ وبدافع التربية ـ تعتبر كل تعامل مع شخص بعيد عن العائلة تعامل مع غرباء ويُحذّر من مقاربتهم، ونتيجة الفجوة القائمة بين العائلة والمجتمع يأتي الفرد إلى المجتمع من أسرته وهو يحمل وزر عدم الاطمئنان للآخرين لدرجة يشعر بأن في تعامله مع الآخر قد يكون فيه خدع أو مكر أو استغلال أو قد يكون معرضًا للانسحاق إذا لم يتخذ موقف الهجوم والسيطرة، وهذا ما خلص إليه السوسيولوجي هشام شرابي في مؤلفه «مقدمات لدراسة المجتمع العربي» بالقول: «إن العلاقات الاجتماعية ما هي في النهاية الا انعكاس للعلاقات العائلية والعكس بالعكس، وما السلوك الاجتماعي إلا تعبيرًا عن الشخصية الاجتماعية المنبثقة من الارتباط الوثيق بين العائلة والمجتمع»[1].

4) مجال الزمان والمكان:

للتفاعل مع الآخرين هناك أكثر من وسيلة (الهاتف/ الرسالة/ الهدية/ اللقاءات المباشرة في المناسبات) إلّا أنّ التواصل البريدي الفوري أضحى مثالًا عصريًا للترابط الوثيق بين أشكال الحياة الاجتماعية من جهة، والقدرة على التحكم بالزمان والمكان من ناحية أخرى، فالبريد الإلكتروني عبر الإنترنت على سبيل المثال أتاح التفاعل مع أناس من شتى بقاع العالم دون معرفة مسبقة (**تفاعل المكان**)، كم أنه عدّل من حركة الزمان فأصبح بالإمكان الاتصال بصورة فورية ومباشرة وفق ما يعرف بلحظنة التواصل (**تفاعل الزمان**). لقد أعاد هذا الدخول التقني ترتيب حياة الناس اليومية في أشكال من التفاعل لا مجال لمقارنتها مع الزمن الغابر حتى أصبح ضروريًا وحيويًا بشكل لا يمكن تصور الحياة بمعزل عنه.. فالتخاطب عبر ما يعرف «e - mails» ورسائل الهاتف الخلوي غديا من البديهيات القائمة في حياة الكثيرين بالمجتمعات المعاصرة.

عن **تفاعل المكان**، فقد أدى التزايد السكاني إلى انحسار تدريجي للمساحة الخاصة بكل شخص، حينما تكتظ الأماكن العامة بالناس وتمتد

(1) د. هشام شرابي، مقدمات لدراسة المجتمع العربي، الأهلية للتوزيع والنشر، بيروت، 1977.

الطوابير أمام بعض المراكز لتصبح السيطرة على المجال المكاني أمرًا في غاية الصعوبة يحتاج إلى «تحرك محدود»، فإذا كنت من سكان المدن الكبرى ستلاحظ بالتأكيد ـ وأنت في الأوتوبيس أو الأزقة أو عند التزاحم في المتاجر الكبرى ـ انحسار المسافات التي تفصل أحدهم عن الآخرين وملامح الناس تبدو جدية، عابسة، متجهمة.

مثل هذه الظاهرة أصبحت محور علم خاص يعرف ب «علم استخدام المساحات المشتركة» ينطلق هذا العلم من نظريتي المجال الخاص ومساحات التهرب من الأفراد، اللتين وضعهما عالم النفس الأمريكي (J.B.SKINNER) أواخر الستينات من القرن العشرين، وقد استوحى نظريته بناء على ما توصل إليه عالم فرنسي شهير حول موضوع «العدوانية» في العلاقة بين الأفراد، حيث يتساءل هذا الباحث الفرنسي **«ألا يمكن القول بأن العدوانية ثمرة المخيلة، يغذيها الخوف من اقتحام المجال الخاص»** فالمجال الخاص عبارة عن مساحة غير مرئية، هو هالة افتراضية تحيط بالمساحة التي يحتلها الجسم، تضيق وتتسع وفقًا لكل شخص وبحسب المكان الموجود فيه، ففي المصعد مثلًا تقل مساحتك عن تلك في الطريق، وفي الطريق الضيق أو على رصيف مزدحم يضطر أحدنا إلى أن يعدّل تلقائيًا من سرعة مشيه أو إلى الانحراف قليلًا حين نصادف شخصًا قادم من الجهة المعاكس، فنفسح له ممرًا كي لا يحدث تماس جسدي، كأن هناك رادار غريزي ينبهنا كي لا نصطدم بالآخرين أثناء مرورنا، لأن أي سهو في الاصطدام من شأنه أن يطلق عدوانية كامنة في أعماق الآخرين. لهذا ينصح خبراء لغة الجسد بأن التيقّظ واجب في هذه الحالات لأن البشر كالتفاح بقدر ما يتكدّسون بقدر ما يفسدون[1].

يكشف التفاعل الاجتماعي في حياتنا اليومية الكثير من الجوانب التي في سلوكنا، فهو العملية التي يرتكز عليها تواصلنا الاجتماعي من خلال الفعل وردات الفعل تجاه من حولنا. لم يعد فضاؤنا الاجتماعي محيطه المنزل أو الحي أو القرية. حيث التفاعل الوجاهي قائم ومعروف، وإنما امتد نحو

(1) خلال الحرب اللبنانية شهد اللبنانيون حالات تهجير قصري إلى غرف صغيرة في الريف، أو=

أشخاص لم نلتق بهم قط، فرضته طبيعة الحياة الجديدة بدءًا من شخص قد تتعرف عليه للوهلة وأنت تفتح حسابًا في أحد البنوك، وانتهاءً بأناس يبعدون عنك آلاف الأميال عبر عالم الاتصال التقني. لقد تسارع نبض الحياة الحديثة وأصبح التفاعل مع أجهزة التلفزيون والكومبيرتر أكثر مما نتواصل فيه مع جيراننا وأصدقائنا، ولكن ما هو مآل هذه «الفورة» التقنية على مساق حياتنا اليومية؟ هل غيرّت وجه الحياة البسيطة القائمة على حميمية أم عززتها؟ ما هي نتائج هذا الاتصال التقني المكثف على نمط تصرفاتنا وسلوكنا الاجتماعي وتفاعلنا اليومي هل جعله باردًا؟ ما هي طبيعة التفاعلات المستجدة والتعقيدات الناجمة عنها؟.

*** التواصل التقني: دافئ أم بارد؟**

بطريقة أو بأخرى تنتظم الناس في جماعات، وحينها تقيم سلسلة من التواصل تعرف بالشبكة الاجتماعية social network التي تعني الارتباطات القائمة والعلاقات المباشرة فيما بينها. محور هذه الشبكة هو مختلف النشاطات التي يقوم بها الإنسان مع غيره سواء بشكل حسي يومي أو سواء عبر وسائل أخرى، على سبيل المثال في العام 1998 ظهرعلى شبكة الإنترنت أول موقع يقدم خدمات تعارف للشباب والبنات يدعى eHarmony تلاه my space العام 2003 ثم موقع الفايس بوك، مثل هذه المواقع وغيرها لم تكن فقط مجرد صفحات إلكترونية تنشر المعلومات والأخبار والأحداث الغريبة، وإنما ما تتركه من تأثير على نمط التفاعل وصوره. لفترة من الزمن كان التواصل محددًا برسالة خطية أو بطاقات معايدة بالمناسبات الكبيرة ومحكومًا بالزمن والمسافة والجهد، بينما اليوم أصبح التفاعل مختصرًا في حضوره الآني والمباشر وربما بأسلوب التعاطي مع الآخرين.. فلو أخذنا ما يعرف اليوم facebook نجد أن 87% من الشباب والأولاد هو وسيلتهم المفضلة في

= إلى انزواء في ملاجئ الأبنية بالمدن، مع هذا النزوح والانزواء كان يتوّلد نوعًا من الاكتظاظ البشري القسري، حيث يكثر الأشخاص المتواجدون تحت سقف واحد فيؤدي ذلك إلى حالات ضيق وتوتر نفسي شديد، مما يجعل الحياة في ظل هذا الاكتظاظ صعبة وثقيلة، فالرجال تعطلوا عن العمل وزادت عصبيتهم وباتوا يتحدثون بصوت مرتفع، وكأنهم يصرخون طوال الوقت، وهذا يعود إلى فقدان الفسحة الحيوية وغياب الاستقلالية وانحسار المجال الخاص.

التواصل عبر الصور والمحادثة والفيديو حتى أصبح دون منازع الشبكة الاجتماعية الإلكترونية، ولكن ما الآثار الاجتماعية التي يمكن أن تتأتى عن مثل هذا التواصل؟.

أشار استطلاع للرأي أجراه مركز إحصاء عالمي (IPSOS REID) إلى أنه في غمرة حياتنا اليومية نجد أنفسنا نتواصل اجتماعيًا بما معدله 17 مرة عبر وسائل تقنية مقابل مرتين من خلال اللقاء الشخصي المباشر..هذا يعني أن فضاء الشبكات الإلكترونية أدخلنا عالمًا لاشخصيًا وجعل تواصلنا باردًا وعلاقاتنا أصبحت «digitally» تتم عن بعد وفق ما يعرف بال: email, my space ,facebook,msn,فأنت عندما تتواصل عبر هذه «المجالات» يبقى في ذهنك بأنك تخاطب شخصًا عن بُعد ومحتوى المحادثة يبقى محدودًا بكلمات ويُختصر برموز..مما لا يجعلك تعبر عن مشاعرك وأحاسيسك كما هو الحال أمام شخص مقرب تلتقيه وجهًا لوجه، من هنا أظهر ما نسبته 61% من المستجوبين حنينهم إلى اللقاءات المباشرة التي كانت تتم بكثافة قبل مجيء وسائل التواصل المتعددة، فاللحظات التي تقضيها مع أحدهم، سواء بالزيارات المتبادلة أو بالخروج سويّة، ومخاطبة الآخر وهو ينظر إليك وتنظر إليه مهم بحد ذاته في إرساء علاقة حميمية، ويجعل من لحظات لقائكما أنيسة وممتعة في آن، لهذا تنصح خبيرة العلاقات الإنسانية (آلين ماكفيل) وتعليقًا على نتائج الاستطلاع: «أن مسألة التواصل بينك وبين آخر ليس مجرد كم تحادثه باليوم عبر الهاتف أو كم تراسله إلكترونيًا.. وإنما أهمية الاتصال والعلاقة ترتكز بشكل رئيس على جلسة هادئة وجهًا لوجه، لأننا بالنهاية نحن مخلوقات اجتماعية وُجدنا لنقيم علاقات، فلنجعل التواصل البشري فاعلًا أكثر من التواصل عبر الكومبيوتر أو غيره». خاصة وأن النسبة الأكبر من المستجوبين (88%) أقروا بأن اللقاء الشخصي يجعلهم أكثر تقربًا وأقل اضطرابًا من اللقاء التقني عبر الهاتف أو البريد الإلكتروني[1].

وبالسياق ذاته بينت دراسة أجريت العام 1997، أن ما يقرب من نصف

(1) metro، صحيفة كندية محلية، 9/ 12/ 2008.

الموظفين العاملين في المكاتب ببريطانيا أفادوا بأن الإنترنت قد حل محل التواصل مع الآخرين وجهًا لوجه، ويرى ثلث المستجوبين أنهم يتعمّدون استخدام الإيميل ليتجنبوا اللقاء المباشر(الوجاهي) مع زملائهم، كما يرى آخرون أن كثافة المراسلات البذيئة على البريد الإلكتروني الخاص قد أدت إلى انهيار علاقات صحبة بين الزملاء والزميلات . .

ورغم أن أنصار الثورة التقنية الحديثة يدافعون عن أهمية دورها باعتبار التفاعل الإلكتروني أصبح وسيلة للتحرك والتمكين بحيث يجعل الناس يتحدثون ويعبّروا بحرية أكثر قياسًا على ما يستطيعون فعله في مواضع أخرى. وصحيح أن أشكال الاتصال الجديدة أحدثت ثورة هامة في الطريقة التي يتواصل فيها الناس، غير أن هناك مطالبة ونزعة إلى اللقاءات المباشرة تُعرف بالنزعة إلى التقارب، أي حاجة الأفراد إلى التلاقي والتشديد على أهمية الحضور الإنساني المباشر في التواصل، كي يتمتّن جسر الثقة والمودة بين الناس وتتعزز الوشائج الحميمة بعدما افتقدت الدفء وحرارة المشاعر ونبض العواطف الحارة بفعل التواصل الافتراضي.

obeikandl.com

obeikandl.com

المصطلح الثاني
التنشئة والنشأة

عندما يقال بأن الإنسان ابن بيئته وصدى مجتمعه ووليد الظروف، ماذا يعني مثل هذا الكلام؟. أي دور لظروف البيئة والمناخ والطبيعة وحياة المجتمع في إيجاد تنشئة أونشأة؟. هل يمكن لأحداها أو مجتمعةً أن تُشكّل الإنسان ككائن اجتماعي؟.

* قرر بعض الباحثين وأخصّهم الطبيعيين (NATURALIST) بأن الطبيعة هي ما تجعل الإنسان إنسان (دارون)، وأظهروا كيف يمكن للبيولوجيا أن تؤثر في تصرفات الإنسان اجتماعيًا، فدور المرأة ودور الرجل في الحياة هي ليست متعلّمة وإنما متجذرة في الجينات البيولوجية، معتبرين أن ما يدفعهما لممارسة الأدوار إنما هو التكوين البيولوجي وليس السياق الاجتماعي وذلك ضمن ما يعرف بغريزة الحفاظ على البقاء، وبيّنوا ـ في إطار دراسات سُمّيت فيما بعد socio-biology ـ أن الطبيعة الإنسانية تتأثر بتركيبات بيولوجية تدفع الإنسان إلى المشاركة والتجمّع في مجموعات ذات خصائص تنسجم ومزاجه ورغباته أو طبيعة حياته (وهذا ما يفسر لنا تكوّن الشلل) من هنا يُقال بأن الإنسان حيوان من حيث التكوين البيولوجي ثم يُضاف كلمة اجتماعي من حيث أن البيولوجيا تدفعه للاجتماع.

* باحثون آخرون وهم من يُعرفون بذوي المنهج التفكير الحتمي (determinism) قرروا بأن الإنسان ابن بيئته يخضع للظروف المناخية التي أعطوها أهمية مطلقة في تأثيرها على سلوك الإنسان ونمط معيشته وأنواع تنظيماته الاجتماعية، وأن الإنسان برأي الحتميّين هو سلبي يعيش في بيئة ذات تضاريس ومظاهر طبيعية خاصة ومناخ معين وغطاء نباتي وعالم حيواني مميز

عن غيره، كلّ هذه العوامل برأيهم تؤثر في الإنسان تأثيرًا كبيرًا وعليه أن يتكيّف مع هذه البيئة ويعيش على ما تقدمه وأن تكون حياته الاجتماعية انعكاسًا لهذا التكيّف. ومن الأمثلة التي يوردها رواد هذا المنهج:

☆ **إن سكان الأقاليم الحارة يتميزون بالخفة والطيش بسبب المناخ الرطب الذي يبعث على الكسل، أما سكان الأقاليم المعتدلة فهم أحسن حالًا في أجسادهم وأخلاقهم، فألوانهم أصفى، وأبدانهم أنقى، وأخلاقهم أبعد عن الانحراف (ابن خلدون / المقدمة).**

☆ **إن سكان المناطق الجنوبية الحارة لهم القدرة على التمييز بين الحق والباطل ولكن من طبائعهم الأخذ بالثأر والمكر، بينما يمتاز أهل المناطق الشمالية الباردة بالقسوة والمخاطرة ويتصفون دون غيرهم بالقدرة على القيادة، أما أهل المناطق المعتدلة فهم أكثر فطنة من أهل الشمال وأكثر نشاطًا من أهل الجنوب (بودان / الكتب الست لدولة خيرة).**

☆ **إن الإنسان هو نتاج سطح الأرض وهذا لا يعني أنه من الأرض بل إن الأرض هي التي ربّته، أطعمته ووجّهت أفكاره وصقلت قدراته، ففي الجبال أعطته ساقًا ذات عضلات قوية ليتسلق المنحدرات وطباعًا قاسية كالطبيعة وعلى السواحل منحته صدرًا واسعًا وذراعًا قوية يضرب بها المجذاف (ألين سمبل/تأثير البيئة الجغرافية).**

وبعضهم اعتبر بأن الإنسان كائن اجتماعي يصنعه المجتمع؟ إذ لو سلمنا فرضًا بأنه يتكوّن من تلقائية ذاته وفق نمو طبيعي قوامه الغذاء والماء والهواء في عالم بعيد عن أية حياة بشرية ـ مدنيّة كيف له أن يكون؟ الإجابة على هذا التصور اختصره في باريس الدكتور (أيتر) الذي أشرف على تربية الولد المتوحش «laveyron» الذي وُجد في الغابة، وبعد أربع سنوات يئس من إيصاله إلى مرتبة الإنسان المتمدّن نتيجة تقدمه البطيء في جعله اجتماعيًا إلى أن قال: «إن الإنسان إذا ما حُرم من بيئة اجتماعية فهو دون الحيوان».

هذا الاستنتاج يدل على ما للواقع الاجتماعي من دور في النمو يضاهي

النمو الطبيعي وهذا ما نعنيه بتعبير التنشئة الاجتماعية حيث يطلق هذا المصطلح على العملية الذي يتعلم بها الأطفال أو الأعضاء المستجدّون في المجتمع أساليب الحياة، هي الوسيط الأول الذي يجري فيها نقل الثقافة ومعايير المجتمع إلى الأجيال، كما أنها سلسلة المعارف التي تتواصل عبر الأجيال من الأجداد إلى الآباء فالأحفاد في عملية تتشكل منذ بدايات العمر وحتى آخره. . إنها وباختصار الأدوار التي تقوم بها الأسرة والصحبة والمدرسة ومكان العمل ومؤسسات أخرى عبر ما يُعرف **بحلقات التنشئة** التي منها:

1) الأسرة:

هي الوحدة الاجتماعية الأولى التي اهتدى إليها الإنسان الأول كي تستمر حياته على نحو جماعي، فحياة الجماعة تستمر عندما يلتقي زوج وزوجة لتأسيس حياة أسرية خاصة يتولى خلالها الأبوين إنجاب الأطفال وتدريبهم وتعليمهم عن طريق التقليد والتلقين، وهكذا تبدأ مسيرة الحياة بالنسبة للفرد بعد الولادة بوقت قصير عندما يأخذ الأطفال يتحسّسون المحيط الذي يعيشون، ومعها يبدأ الأهل في تأمين حوائجهم كي يبقى أطفالهم في مأمن وسلامة ويحرصون على تغذيتهم ونومهم ولعبهم كي يكونوا في أتم صحة وعافية ولكن هل هذا يكفي لتنشئة الأطفال تنشئة سليمة؟.

من المتابعات الميدانية لوحظ أن هناك اختلافًا جوهريًا في طبيعة التنشئة بين الثقافات فيما يتعلق بمسألة التربية وأساليبها، ففي المجتمعات الغربية هناك تنشئة لمبادئ التربية على الاستقلالية تبدو واضحة عند الغربيين مما هي عند الآسيويين الذين يتسمون بالاتكالية والعجز والتهرب، يلقى أطفال الغرب تشجيعًا دائمًا وأساليب صريحة على الأداء المستقل، ويطلب الآباء والأمهات دائمًا من أطفالهم أن يحددوا اختياراتهم بأنفسهم كما في قولهم لهم مثلًا: «هل تحب أن تنام الآن أم تفضّل تناول شيء من الطعام قبل النوم أولًا؟» بينما الأب الآسيوي يتخذ القرار بالنيابة عن ابنه مفترضًا أنه يعرف أكثر منه ما هو خير له[1].

(1) في اليابان يبدأ الأهل ـ على سبيل المثال ـ تعليم الأولاد منذ سن السادسة أساليب الحياة=

تشدد التنشئة الأولية في الأسرة على طرق التربية لأنها تمثل دورًا حاسمًا في تعيين نوعية الشخصية وإلى فهم السلوك الاجتماعي ودوافعه في المجتمع، ويرى علماء النفس الاجتماعي بأن طرق التعامل في الأسرة لها أثر بيّن على شخصية أفرادها داخل المنزل وخارجه وربما طوال حياتهم وفي مختلف شؤون أعمالهم، فعلى سبيل المثال إذا نظرنا إلى علاقة الأب بابنته فإنها تُوصف وفق السياق الذي تتخذه:

- ☆ **إذا منح الأب ابنته الاهتمام وفتح معها جسرًا من الحوار الصريح، من شأن ذلك أن يجعلها ذات ثقة بذاتها وصاحبة اتخاذ قرار، وعلى العكس من ذلك إذا كانت علاقة الأب بابنته متوترة فإن علاقتها بزوجها قد تتوتر في المستقبل.**
- ☆ **وعندما يدلّل أب ابنته بشكل مبالغ فيه، فإنها تعتقد أن هذا هو النمط المناسب في التعامل معها والذي يجب أن يكون عليه الآخرون عند التعامل معها.**
- ☆ **وهناك أب ينأى بنفسه عن ابنته معتقدًا أنه يتبع أسلوب تربوي سليم، إلا أن مثل هذا الابتعاد من الأب يُشعر الابنة بأنها غير ذي قيمة لديه فتتعزز لديها فكرة أنها غير مرغوبة من الآخر، خاصة الشباب الذين قد يتقدمون إليها للزواج.**
- ☆ **أما الأب الذي تتعدد علاقاته النسائية وتعلم عنها ابنته فهو يمثل بالنسبة لها كارثة نفسية لأن ذلك يجعلها تشكك في كل من حولها ولا تقوى على إقامة علاقة متوازنة مع أي شخص يتقدم للزواج منها.**

= مع خروجهم إلى مجتمع المدرسة لناحية كيف يمكن أن يقطعوا الطريق/ يوقفون الباص/ يفاوضون في شراء الأشياء/ يحفظون قواعد السلامة العامة/ يحرصون على عدم التكلم مع الغرباء/ ينصحون باستعمال الدرج بدلًا من المصعد/ إلخ.... وبعد سن السادسة ينبغي للأطفال أن يصبحوا مستقلين تمامًا عن ذويهم.. (لدرجة إن أنت أوصلت طفلك إلى المدرسة بعد الشهر الأول من بداية العام الدراسي يبدو ذلك غريبًا بل مضحكًا في عيون الآخرين..).

☆ **وفي حالة البنت التي تتربى بعيدًا عن الأسرة وتحديدًا الأب فإنها تحاول أن تقوي نفسها بنفسها وتبني شخصيتها بطرق مختلفة لتعوّض ذاتها عن الأمان ـ الدعم ـ الذي حُرمت منه.**

لأجل ذلك تلخص مهمات الأسرة في التنشئة بمهام عدة أبرزها:

1 . **تأمين الاستقرار النفسي**، أي تهيأهم كي يأخذوا دورهم في الحياة ولا تقتصر مهمة الأسرة على تنشئة الأولاد وهم صغار، وإنما تحرص على متابعتهم في مراحل العمر اللاحقة، في بعض المجتمعات الغربية يستقل الأولاد عن ذويهم في عمر معين، ليُكملوا حياتهم بدونهم إلا أنه في المجتمعات التي تشدد على الروابط الأسرية يبقى الأولاد على التصاق بأسرهم، ولو اغتربوا عنها فثمة مكانة لها في وجدانهم وذاكرتهم، حيث في المجتمعات العربية والإسلامية مثلًا تبقى ملاذهم الآمن، ومرجعية قرارتهم والمرتع الأساس في المناسبات.

2 . **إيجاد التكيف المناسب**، ذلك أن عدم التكيف داخل الأسرة قد يكون سببًا لعدم التكيف خارجها، فقد تبين أن 70% إلى 90 % من الأحداث المنحرفين قد جاؤوا من بيوت مضطربة، وفي الآونة الأخيرة لوحظ في بعض الدول العربية ظاهرة هروب الفتيات من منازلهن، وعن سر تكرار مثل هذه الحالات ودوافع ترك الفتيات لأسرهن يعود برأي الباحثين إلى غياب الحوار وكثرة الرفض من الأهل لمتطلبات الفتاة وكثرة الجدال يؤدي إلى الإحساس بعدم إشباع حاجتها النفسية من الحب والتقدير فتزداد الفجوة بينها وبين عائلتها، وقد تصاب الفتاة بالاكتئاب وتصل في نهاية المطاف إلى فكرة الهروب. هذا فضلًا عن غياب دور الأمومة الحقة والخلل الكامن في أسلوب التربية والانفتاح غير المحسوب على العالم بمغرياته ومؤثراته وضعف الرقابة الأسرية وإهمال البنت من قبل الأب والأم، خاصة، إذا كانت يتيمة وتعيش مع زوجة الأب أو زوج الأم وهو ما يفقدها الإحساس بالرعاية والحب والدفء، بينما تبين أن البيئة المنزلية السليمة والمنسجمة تساهم برفع مستوى ذكاء أبنائها حتى نسبة 20%.

3 . **تلبية الحاجات الاجتماعية**، إلى جانب تلبية الحاجات البيولوجية تتولى الأسرة مهام التوجيه والتربية، كما تؤكد على أهمية تعزيز الاستقلالية، توكيد الذات، مهارات التعامل مع الآخر، تكريس قيم النجاح والطموح. . وأن يفعل الأطفال ليس فقط الأشياء الجيدة وإنما يتجنبوا الأشياء السيئة. وهذا ربما الدور المهم الذي يجب أن تقوم به الأسرة. لأن دور الآباء في التربية لا يقف عند حد الإنجاب وتأمين الغذاء والصحة لأولادهم، بقدر ما يجب أن يرافق ذلك إعداد نفسي وعاطفي وفكري يساعدهم على مواجهة مشقات الحياة، وكي تتجلى مسؤولياتهم عبر مراحل عمرهم المتعاقبة. و من بديهيات العمل التربوي من قبل الأهل تجاه الأطفال مراقبتهم دائمًا وأن تتاح لهم فرصة التعرف على ذواتهم، أن يدركوا ما يدور في داخلهم ويجيبوا على تساؤلاتهم المقلقة، وأن يوفروا لهم المناخ العائلي الملائم كي ينمو نموًا تربويًا صحيحًا، لا ريب في أن الأولاد يحتاجون إلى الشعور بتقدير البالغين لهم في أعمالهم الحياتية، لأن حسن تقدير الذات ليس فقط دليل شخصية معافية، وإنما حاجة اجتماعية مطلوبة، وقد بينت عدة دراسات ـ في هذا السياق ـ ما يتوجب على الأهل تجاه أولادهم تقديمه خلال مرحلتي الطفولة والمراهقة:

*** في مرحلة الطفولة:**

يجب الحرص على تنمية النواحي التالية:

1 . دفعهم نحو الانضمام إلى جماعة الصحبة وتشجيع العمل التعاوني.

2 . توجيه نحو تحمل المسؤولية.

3 . تشجيع على الاستقلالية.

4 . الإلمام بالتنشئة الدينية الواعية.

5 . تقديم النماذج السلوكية القويمة الملائمة لفترات الأعمار.

*** في مرحلة المراهقة: على القائمين بعمليات التربية والإرشاد تنمية الجوانب الاجتماعية وفق ما يلي:**

1 . حرية المراهق في اختيار أصدقائه مع توجيهه إلى الاختيار الأنسب.

2 . احترام ميل المراهق ورغبته في التحرر والاستقلال.

3 . تنمية القيم الدينية والأخلاقية والجمالية.

4 .تشجيع الميل نحو القيادة وتدريبه على تحمل المسؤولية.

5 . تنمية الفردية واحترام الخصوصية بما يسمح للمراهق بتأكيد ذاته.

6 . تعزيز التقدير والاعتراف الاجتماعي.

يمكن النظر إلى الأسرة لناحية تأثيرها في التنشئة بوصفها نظامًا متكاملًا له دوره في جوانب متعددة: الجانب الانفعالي (**ويتمثل في جملة خصائص نفسية كالجرأة والثقة بالنفس والنزعة إلى الاستقلالية، أو الخضوع والاستسلام أو المبادرة والانطلاق**) والجانب المعرفي (**ويتمثل في رفع مستوى معارف أبنائها بالتحصيل الدراسي وتأمين الأجواء المعرفية من مكتبات ووسائل**) والجانب الاجتماعي (**الذي يبدو في تمثل المعايير السلوكية الخاصة بحياة الجماعة وعلى الإعداد والتهيئة للتكيف مع منظومة العلاقات الاجتماعية القائمة**).

2) المدرسة:

مع بداية القرن الماضي كانت تعرف المدرسة على أنها «مهمة مطلوبة» كي تكمل دور الأسرة في بعض المهام والأوقات عبر شخص مكلف، إلا أنه لاحقًا اختلفت مثل هذه النظرة لتصبح المدرسة مؤسسة رسمية قررتها الحكومات مع زيادة أعداد الطلاب وأصبح من الضروري إعداد منهاج معرفي وتنويع الأنشطة التربوية كي يأتي متكاملًا في التأهيل، وتصبح بحق كحلقة تنشئة في المجتمع، بعد ذلك بزمن أي في العصر الحالي غدت المدرسة بمثابة «مؤسسة قائمة بذاتها» شبيهةً بالمصانع والمستشفيات وسائر المؤسسات الخدماتية في المجتمع، معظم الناس يعتقدون أن المدرسة الجيدة تكمن في المبنى الجميل من الحجر الأبيض أو الأحمر(الآجر) والساحات الفسيحة، والأساتذة ينبغي أن يكونوا عباقرة والإدارة يجب أن تكون صارمة، لكن الواقع

هو أنه مع تزايد عدد الطلاب وتغيّر الواقع الدراسي دخل مفهوم التعليم سوق المنافسة على الخدمة التربوية الأمثل وفق متطلبات العصر فلم تعد المدرسة مجرد «مبنى» بل توسعت في هيكليتها لتصبح إدارة ومنهاج وسياسة وتوجه واستثمار مالي، تتنافس في استقطاب النخبة من التلامذة، وفي أن يكون بعضها مكانٌ لأبناء الطبقات الراقية وذوي الدخل المرتفع وهذا ما يُعرف بظاهرة المدارس النخبوية المختلفة تعليمًا وتدريبًا عن المدارس الرسمية (الحكومية).

وقد لاحظ أكثر من باحث بأن المدرسة الحديثة تتميز بسمات أبرزها:

1 . **تقاسم في العمل**، أي هناك طلاب موزعون حسب المستويات المعرفية ولكل مستوى منهاجه العلمي المقرر ولكل منهاج أساتذة مختصون بحسب ساعات عمل.

2 . **هيكلية إدارية**، كل شخص في المدرسة منضو في تراتبية إدارية قائمة على قاعدة هرمية، أي هناك عمل مسؤول من كل معلم أو موظف تجاه الأعلى منه رتبة، الأساتذة تجاه منسق القسم، ومنسق القسم تجاهْ مدير المرحلة، ومدراء المراحل ورؤساء الأقسام والمدراء الإداريين تجاهْ المدير العام وهكذا.

3 . **احترام الأنظمة**، جميع العاملين في المدرسة بما فيهم المدراء، محكومون بقواعد وأنظمة وقوانين مرعية الإجراء، هناك بيوقراطية متبعة ضمن نظام عمل المدارس.

4 . **انحسار الشخصنة**، لم تعد العلاقة بين المعلم وتلميذه علاقة شخصية كما في المدرسة الأولى، لأن مع تكاثر الطلاب وتوسع انتشارها خارج الحي أو القرية إلى مناطق أخرى أصبح من الصعب على المعلم الاهتمام بتلاميذ محدّدين بل يتوجه إلى الجميع على أنهم سواء، وإذا ما أعطى معلم مجموعة من تلامذته شيئًا من الاهتمام فذلك ليس لأنه هو يريد ذلك بل لأن هناك مجموعة من التلاميذ والطلاب هي من فرضت تميزها فاستدعت

انتباه المعلم لها.

5 . **كادر وظيفي**، إلى جانب الكادر التعليمي المتخصص كذلك هناك كادر وظيفي متخصص أيضًا من الإداري في مجال التربية أو الإدارة، إلى المحاسب المالي، إلى سائق الباص، إلى المنشط الرياضي ومدربة المسرح والفنون إلى غيرهم من المتخصصين الذين يتم التعاقد معهم على أساس مهني وبناءً على خبرات ونتائج عمل متوقعةً منهم.

أما عن دور المدرسة في التنشئة فإنه يختصر بالدور الذي تلعبه في حياة الطلاب، ذلك أن المدرسة مؤسسة أوجدها المجتمع لإنجاز عمل خاص وهو الحفاظ على الحياة وتحسينها، ويمكن توضيح هذا «العمل الخاص» بالوظائف التالية:

☆ اعتبارها وكالة اجتماعية ثانية (بعد الأسرة) المكلفة بإعداد الأجيال معرفيًا وسلوكيًا وبدنيًا وأخلاقيًا ومهنيًا من خلال برامج التربية، لقول إميل دوركايم عن الوظيفة الثقافية للتربية المدرسية: «الإنسان الذي يجب على التربية أن تحققه فينا ليس الإنسان على غرار ما خلّفته الطبيعة بل الإنسان على نحو ما يُريده المجتمع».

☆ اعتبارها معهدًا علميًا رائدًا للإعداد المعرفي، واليد الماهرة والعقل المبدع، فقد تبين من بعض الدراسات أن إنتاجية العامل الأميّ ترتفع بنسبة 30% بعد عام واحد من الدراسة الابتدائية، ونحو 320% بعد دراسة 13 سنة تعليم متتابع، لتصل إلى 600% بعد الدراسة الجامعية.

☆ اعتبارها مكانًا هامًا لزرع المبادئ والمفاهيم والقيم، لأن المدرسة اليوم لم تعد مقتصرة على تأمين العلم والمعرفة بقدر ما أصبح لها أكثر من غاية فكرية قائمة، تنمية الذات والدور الاجتماعي المنوط لأبنائها مستقبلًا، وهذا ما يبينه المربي الفرنسي A.LAIN (1868/1951) الذي يقول: إذا كان فن التعليم لا يستهدف إلا تنوير العباقرة هذا مدعاة للسخرية، فهولاء الذين يتعثرون هم بحاجة للمساعدة، لهذا ندعو إلى الاهتمام

بالبليد قبل الذكي وعدم إهمال الضعيف واحتقاره، وعبارة «هذا الطفل ليس ذكيًا» يجب أن تسقط من حساب وأقوال المدرسين وعلينا ـ كمربين ـ أن نستهلك ما لدينا من مهارة وعطاء لإحياء تبلده الذهني».

إن مهمة المدرسة تقوم على إمداد مرتاديها بالمهارات المعرفية لمراحل العمر اللاحقة وللحياة الأكاديمية التالية (الجامعة) وللحياة الاجتماعية المرتقبة. وعلى الرغم من أهمية الدور الذي تضطلع به وبأنها واحدة في التوجه والحياة وعلى أنها متجانسة لجهة التلامذة التي يرتادونها، إلا أن الدراسات بينت عكس هذه الصورة، فحياة الطلاب ليست واحدة داخل المدرسة فهم متنوعون عرقيًا، ومختلفون طبقيًا ودينيًا ومتمايزون بدنيًا وفكريًا، وفق ما أظهرته دراسة الباحث الأمريكي AUGUST HOLLINGSHED الذي وجد في إحدى الثانويات الأمريكية ما يقارب 259 عصبة تلامذة، كل عصبة تتكون في معدلها الوسطي من خمسة تلامذة يجمعهم إما مهارة رياضية أو لأنهم من انتماء ديني واحد أو لأنهم يمتازون بنشاط اجتماعي/ثقافي/فني يرغبون القيام به وبالسياق ذاته وجدت الباحثة الأمريكية (HELLEN LEFKOWITZ) أنه في عالم الجامعة مجموعات فرعية student subculture وهي:

1 . **الجامعيون** (the collegiate) قلما يكون هؤلاء أكثر التزامًا بواجباتهم الأكاديمية، وإنما يتجهون نحو ما تحققه لهم الجامعة من أجواء ممتعة، يركزون اهتمامهم أكثر على المرح واللقاءات الاجتماعية.

2 . **الأكاديميون** (the academic) وهم الذين يظهرون اهتمامًا أكثر بمقرراتهم ويتابعون متطلبات الدراسة من أبحاث واختبارات ونشاطات وحضور ندوات ومؤتمرات وأعمال بحث ميدانية، كل ذلك بهدف إغناء البعد المعرفي المتعلق باختصاصهم.

3 . **المهنيون** (the vocational) والذين همهم الأول الحصول على إجازة كيفما اتفق، لا يعنيهم الاجتهاد بهدف الحصول على علامات عالية لنيل تقدير بل ما يكيفهم وما يعنيهم في نهاية الأمر الحصول على الشهادة كوسيلة

للعمل والوظيفة.

4 . **اللامبالين** (the nonconformist) يأتي هؤلاء إلى الجامعة ليس لأنها قاعة تعليم، بل لأنها مكان التقاء الأصحاب أو لأنها ملتقى شبابي يمكن من خلاله تنظيم نشاطات مختلفة وبعيدة كل البعد عن المناخ الأكاديمي، مثل نشاطات حزبية، احتفالات لمناسبة دينية، حفلات غناء، وغالبًا ما تنجح هذه المجموعة بإظهار قادة الفكر وجماعة التغيير وإشاعة أفكار التحرر والتمرد والاحتجاجات ضد سياسات أو قوانين جائرة[1].

يمكن النظر إلى المدرسة/ الجامعة على أنها مجتمع مصغر له ثقافته ومناخه الخاص، يتحدد مركبه من ثقافات فرعية ملموسة تؤثر في سلوك عمل أفرادها، ويقوم هذا المجتمع ـ بحسب تحليلات سوسيولوجية ـ على أربعة مبادئ أساسية هي:

1 . الأدوار التي تتمثل في النشاطات التي يقوم بها القيمون عليها والفاعلون بها.

2 . منظومة المعايير التي تسود المدرسة كمؤسسة (النظام / السياسة/ التوجهات . .).

3 . الجماعات أي جماعة الصف/ مجلس الأولياء/ أندية الطلبة، المدربون المتعاقدون . .

4 . منظومة العلاقة مع المحيط الخارجي، البيئة المحلية، المجتمع.

ولكن **أين المدرسة من دورها الناشط في التنشئة الاجتماعية؟ هل لا زالت تلعبه بالشكل المفترض من تربية وطنية وقيم أخلاقية وبناء شخصية ناجحة؟**. بنظر بعض الباحثين أصبحت المدرسة صورة المجتمع الذي تنمو في كنفه، حيث أصبح هناك مدارس نخبة/ مدارس للعامة/ ومدارس ذات توجه

(1) Sociology 11th edition, richard schaefer, Macgraw - hill international edition new york, 2008.

ديني خاص/ ومدارس تتولى تعليم وتدريس اتجاهات القائمين عليها ومدارس لا تعدو كونها صفوفًا لتلقين التلاميذ ما في بطون الكتب دونما تفاعل مع المواد التعليمية.. حتى أفرز مثل هذا الواقع **لامساواة تعليمية وتمييز تربوي** يكاد يؤثر على ظروف الطلاب بعد تحصيلهم الجامعي ودخولهم ميدان العمل وما يمكن أن يكونوا عليه مستقبلًا؟ لاحظ مثلًا ما يحدث في لبنان عندما يتقدم الشباب نحو وظيفة معينة، فيجد في طلبات التوظيف أسئلة تتعلق بضرورة تسمية المدارس الأولى التي ارتادها، الثانوية التي التحق بها، والجامعة التي تخرّج منها، إنهم يقيّمونه بناءً على مراحل تعليمه الأولى، أين تمّ تحصيلها أفي مدارس رائدة أم مدارس مغمورة؟ لا لشيء إلا لأن اللبنانيون مأخوذون بظاهرة البرستيج التعليمي، فمن يتخرّج من أرقى الجامعات حتمًا سيجد العمل الأفضل برأيهم! وهذا ما جعل المدرسة المعاصرة تعاني أزمة تربوية واجتماعية بالغة الحدة، وهي أزمة تنعكس في إشكالية الوظائف والأدوار التي تقوم بها في إطار الحياة الاجتماعية وفي إشكالية علاقة المدرسة بالمجتمع والمؤسسات الاجتماعية الأخرى لجهة: ديموقراطية التعليم/ صيرورة التغييرات الاجتماعية الحاصلة وطبيعة المنهج الدراسي المواكب لمتطلبات العصر..من هنا شدد علماء الاجتماع على أهمية دور المدرسة في إيلاء التنشئة حقها لجهة القيام بالوظائف المطلوبة فهي وكما يراها جون ديوي: «مؤسسة اجتماعية تعمل على تبسيط الحياة الاجتماعية واختزالها في صورة أولية بسيطة».

3. الصحبة:

كما الأطفال ينمون في كنف أسرة فإنهم في مرحلة عمرية لاحقة يجدون أنفسهم منسجمين في جماعات أخرى خارج الأسرة، تبدو بالنسبة لهم ذات أهمية ونعني بذلك الصحبة، فالصحبة وبحسب التعريفات المتداولة هي أكثر من شخصين يتميزون في مجموعة من الأذواق والأهواء والتوجهات، كما توجد بينهم علاقات محددة ومعروفة بالنسبة لبعضهم البعض حيث هناك: **ميول واهتمامات مشتركة، تأثير متبادل و غايات نفسية واجتماعية متقاربة**، وهذا ما

حدده كل من (جان بياجيه ومارغريت ميد) في أن العلاقة لدى هذه الجماعة تكون أكثر ديموقراطية مما هي بين الأهل والأبناء، لأن كلمة (peer group) وهي التعبير المرادف للصحبة تعني بالإنكليزية EQUAL، وهكذا تغدو الصحبة المجموعات المتقاربة عمرًا والمتساوية في الميول. وليست الصحبة في أن يتخذ الأولاد رفاقًا من عمرهم فحسب، بل هي بالنسبة لهم مرحلة قضاء الأوقات المرحة معًا وتقاسم الأدوار فيما يتشاركون فيه وتبادل للآراء والأفكار حول مواضيع يرغبون القيام بها، وتشير بحوث كثيرة إلى أن من لهم عدد أكبر من القرناء أو ممن يقضون وقتًا أطول مع أصدقائهم يميلون إلى أن يكونوا أكثر سعادة، فالصداقة تصل أقصى درجات أهميتها عند الشباب بدءًا من المراهقة وحتى الزواج، ولعل أهم ما يوفره الأصحاب لبعضهم البعض هو **التحسن الفوري للحالة للمعنوية** ويكون ذلك إما بتوفير جو من المرح كما في مرحلة الناشئة أو بنوع من الإشباع الاجتماعي الهادئ بالنسبة للكبار، لهذا عندما نتساءل عن السبب الذي يجعل الناس يحتاجون إلى أصدقاء وما هو الدور الذي تقوم به الصحبة نجد أن هناك أكثر من سبب:

- ✓ للمساعدة العملية ولمعلومات أكثر مما يوفره أفراد الأسرة.
- ✓ دعم اجتماعي في صورة نصائح أو تعاطف كون الأصدقاء محلًا للثقة.
- ✓ تماثل الاهتمامات والمشاركة في الأنشطة وممارسة الألعاب معًا.

يحث علماء الاجتماع والنفس والتربية على أهمية الروح الاجتماعية وعلى توفر الصحبة وإنشاء الصداقات، لأن الذاتية لا تتحقق إلا في جو اجتماعي ولا تنمو إلا إذا تمكنت من معرفة كيف تلائم نفسها مع الآخرين، فالإنسان يتحرك ضمن مراحل صداقاته ليس كفرد وإنما كعضو في جماعة، لهذا يرى السوسيولوجيون تأثيرالصحبة على مختلف مراحل حياة الإنسان، خاصة في الأوساط التي تقل فيها ظواهر الحراك الاجتماعي، حين يشكل وأقرانه «عصبة» قد تستمر ليس فقط خلال الدراسة وإنما حتى آخر العمر.

* نموذج للصحبة:

ثمة شباب يعملون في مهنة توصيل الخدمات للزبائن، يصطلح على تسميتهم بـ delivery boys، الذين يشكلون معًا جماعة «تحت الطلب» خارج مطعم الوجبات السريعة بانتظار مهمة، مفهوم هذه الجماعة وطبيعة المهام التي يقومون بها وما يترتب عليها من متاعب كانت محور دراسة ميدانية قام بها سوسيولوجيان أمريكيان هما (باتريك كنكايدي وميشال كاتوتش)، لحوالي 18 شهرًا في إحدى المقاطعات الأمريكية، ليجدا أن هؤلاء العاملين أصبحوا مع الوقت بمثابة «صحبة» لا يتلاقون في نفس العمل وحسب وإنما في المقاهي والحانات خارج أوقات العمل، ومن خلال المتابعات الميدانية وجد هذان الباحثان أن ثمة هموم مشتركة يتحادث بها هؤلاء عند التقائهم، ويروون الطرائف والمخاطر التي ترافق مهماتهم من: سرقة/اعتداء/ رفض الطلبية/ مهاجمة الكلاب لهم وحوادث الاصطدام.. مقابل الريع الزهيد الذي يتلقونه، وقد صنّف الباحثان عاملو التوصيل بخمس فئات:

1 . **الظرفاء** (the comedian) هؤلاء يستخدمون حسهم الظريف ليقللوا من صعوبات المهمات التي يقومون بها.

2 . **المغامرون** (the adventure) وهؤلاء يستمتعون بحب المغامرة خلال مهامهم عبر مواجهة المواقف الخطرة ولا يسألون عن المشاكل التي تنتظرهم.

3 . **الناكرون** (the denier) وهم أولئك الذين يحاولون أن ينفوا عن المهنة مخاطرها، فهي بالنسبة لهم أشبه بأي مهنة أخرى لها ما لها وعليها ما عليها من تبعات صعبة أو سهلة.

4 . **المشؤومون** (the fatalist) وهؤلاء الذين يروا في هذه المهنة مخاطر جمة وغير مرتقبة ولكنهم تكيّفوا معها دون أن يبذلوا أي جهد ليخففوا من حدة تلك المخاطر.

5 . **المحترفون** (the professional) وهم الذين لديهم خبرة وتاريخ في مجال التوصيل حتى أصبحوا روادًا في مجالهم وذي حرفة في عملهم والعارفين

بأسرار المهنة، لهذا يرتقوا إلى رتبة مشرف على التوزيع أو مساعد مدير.

4 . عالم الإعلام؟

يكاد يجمع خبراء اليوم بمختلف اهتماماتهم الاجتماعية على اعتبار الوسائل الإعلامية كافة في مدى فعاليتها بالتأثير وصياغة الرأي العام وهندسة السلوك الإنساني، وذهب بعضهم إلى ما تُحدثه هذه الوسائل من ثورة في أمزجة البشر وعاداتهم وثقافاتهم، فالتلفزيون مثلًا أطلق عليه الباحثون الأمريكيون لقب «الأب الروحي للأطفال» ويعنون بذلك أن الأطفال يتلقون تربيتهم على أيدي ثالوث تربوي يتمثل في الأب والأم والتلفزيون..

هذا يعني أن التلفزيون وغيره من الوسائل الإلكترونية ليست أجهزة مركونة في زوايا المنزل بقدر ما هي نظام فكري وثقافي يمارس وظائف محددة ودور تنشئة بالغ الأهمية في تشكيل المفاهيم والتصورات، ويمكن إيجاز ذلك بالمهمات التالية:

1 . **التوجيه والدعاية**، أي تساهم في تكوين المواقف والاتجاهات (**تدعم / تعدل / تلغي**) إما عن طريق التأكيد (تكرارات صريحة ومضمرة لإيصال رسالة معينة) وإما عن طريق الإرشاد والتوجيه (تقديم أمثلة/ عرض نماذج..).

2 . **التثقيف**، أي زيادة المعرفة عن غير الأسلوب الأكاديمي المتبع سواء عبر التثقيف العارض (كأن يكتب الشخص معلومة بطريق الصدفة من وسيلة إعلامية) أو عبر التثقيف المقصود (**حصيلة تفاعل الفرد مع وسيلة إعلامية يتابعها باهتمام بناء على توجه أو غاية معينة**).

3 . **التعارف الاجتماعي**، أي تزيد من فرص احتكاك الناس لبعضهم بعضًا، تصبح نوعًا من التواصل الاجتماعي بعدما خف تواصل الناس الشخصي والمباشر (**وهذا سر انتشار صفحة الاجتماعيات في المجلات وصفحة الوفيات في الصحف**).

4 .**الإعلان**، أي بزيادة وعي الناس للسلع الجديدة ونوعيتها وأهميتها واستخداماتها والعروض المقدمة بشأنها.

5. **الترفيه والتسلية**، وهو الدور الذي يرغبه أكثر الناس في الوسائل الإعلامية لجهة البرامج ومتابعة الألعاب والاستمتاع بخدماتها المتنوعة.

مثل هذه الوظائف تبين مدى أهمية وسائل الإعلام في تشكيل الوعي، وتؤكد بعض الحقائق المتعلقة بدورها إلى جانب العائلة والمدرسة في عمليات التنشئة، ويشير عالم النفس (هيمان) إلى أن هذه الوسائل تتدخل بشكل مباشر في عمليات التنشئة حتى أصبحت بمثابة «تنشئة اجتماعية ثانوية» حيث أن مسؤولية التنشئة الاجتماعية تقع أغلب الأحيان على عاتق أشخاص يتميزون بالخصوصية كالآباء والمعلمين والمربين، أو على عاتق مؤسسات اجتماعية منظمة كالمدرسة والنوادي والمؤسسات الدينية، وعلى خلاف ذلك فإن هناك عمليات تنشئة قد تتم بمحض الصدفة الخالصة وذلك حينما يكون أحدهم في حالة اتصال دائم مع أنماط سلوكية أو معايير أو أشخاص أو أجهزة إعلامية.

إن تكنولوجيا الإعلام دخلت عالم الناس بكثافة وأدخلتهم عالمًا معرفيًا واجتماعيًا جديدًا قوامه ثقافة الضغط على الأزرار، انعكست مؤثراتها على حياة الناس اليومية وأساليب الحياة لديهم، حيث لم يعد باستطاعتهم العيش بدونها، أوجدت لديهم ما يسمى بالإعلام المتفاعل (MULTITASTING) الذي يعني بأن حياتنا أصبحت منتظمة وفق آليات يمكن معها أن نستخدم أكثر من آلة في نفس الوقت بهدف المعرفة أو التسلية أو بهدف ترتيب شؤونك وأعمالك. (ظاهرة البلاك بري (Black Berry).

وبالحديث عن التنشئة ودور الإعلام يبين السوسيولوجي (دن تابسكوت) في كتابه «النمو مع الديجتيل. . .جيل الإنترنت»[1] التغيير الذي حدث نتيجة انتشار وسائل جديدة في عالم الإعلام ، فقد لاحظ هذا الباحث أن هناك

(1) Growing up digital, The Rise of the net generation, Don tapscoit, U. S. A. 1998.

انقسام واضح بين من يسميهم N-Gen وهم الأطفال والناشئة وشباب القرن الواحد والعشرين، وبين الجيل الذي سبقه (جيل التلفزيون). الجيل الأول هو جيل الإنترنت بلا منازع، هؤلاء غيّروا نمط الحياة الذي يعيشون لما يواكبونه من تطور ولم يكن ليدرك آباؤهم عنه شيئًا. ويبدو أن كلتا الوسيلتين - التلفزيون والإنترنت - إلى جانب غيرها من الوسائل الإعلامية ليست مجرد أجهزة تقنية حديثة خالية من أي بعد أو تأثير، وإنما هي «مضامين» إعلامية ومعرفية جديدة تتوزع على مختلف شرائح المجتمع دونما حدود. لقد تملكت الشاشة وقت الناس وتسلياتهم ومعارفهم وحتى أوقات عملهم، أصبحت لحظات الإنسان المعاصر في أكثر ساعات يومه هي أمام شاشة: (تلفزيون/ إنترنت/ هاتف خليوي..) حتى تركت لديه حركة معرفية عما يدور من حوله. عن الحضارات الأخرى وتوقعات السوق وأسلوب حياة الآخرين لم تكن ليشهدها على هذا الشكل المبسط قبل ذاك، لكن السؤال الأبرز الذي يطرحه علماء الاجتماع كيف يمكن لوسائل الإعلام أن تؤثر في تصرفاتنا وأسلوب حياتنا؟ بالإجابة سوف نذكر أكثرها انتشارا واستخدامًا اليوم بين الأجيال: التلفزيون والإنترنت.

من آثار الإعلام المتلفز:

في مقابل الخدمات الجُلى التي يقدمها الإعلام ثمة من ينظر إلى مساوئ هذه الخدمات على أكثر من صعيد، معتبرًا أن الإعلام في غالب وجوهه وأخصه المرئي أسُّ الاستلاب الذي يظهر في أنواع أبرزها:

1 - **الاستلاب الخيالي**: يحدث عندما تُعرض مضامين إعلامية يصل فيها تشويه الوعي إلى أعلى درجاته من تضخيم لحيز الخيال عند المشاهدين خاصة أولئك الذين يتصفون ببساطة تفكير، حال الأطفال إزاء الرسوم المتحركة المتنوعة في سلسلة برامجية هائلة أخطرها تلك التي تكون خارج إطار الواقع، يكون أبطالها آليّون يقودون مركبات فضائية حديدية لقهر الأعداء وتدمير الأرض، فأن يتحول الإنسان إلى آلة ساحقة بمعنى الكلمة يعني في بعض جوانبه تعزيز لمفهوم المادة ومبدأ القوة على حساب القيم

الإنسانية، هذا فضلًا عما تتضمّنه هذه الأفلام من صور للعنف والعدوانية وتغييب المبادئ السامية حتى يعتقد الطفل أن ما يحدث انعكاس لما هو في الواقع فينسلخ منذ طفولته عن واقع الحياة وإنسانيتها وينشأ على حب التسلط واحتقار الآخر لتصوره أن العالم قائم على صراعات تمامًا كالتي شاهدها في أفلامه المحببة.

2 ـ **الاستلاب الأخلاقي**: يواجه علماء النفس والاجتماع مشكلات يصطلح على تسميتها «بالسلوك غير الطبيعي» أو ما يسميه الناس في لغتهم اليومية بظاهرة الإجرام والعنف وحوادث الاغتصاب وتفشي المخدرات وطقوس تعبدية غير مألوفة، وبرأي هؤلاء العلماء أن مثل هذه السلوك يتأتى نتيجة افتقاد التوجه في حلقات التنشئة من الأسرة وصولًا إلى الإعلام ووسائله، التي أخذت ـ هذه الأخيرة ـ تختزل الإنسان في بُعده الاستهلاكي بتضخيم الجانب اللّذوي وتعزيز قيم السوق والانتهازية على قيم التعامل الإنساني الخلوق، عندما أخذت تثير فيه متع عديدة: متعة الأكل، متعة الجنس، متعة حب الظهور، متعة الأنوثية، متعة الرجولة، متعة العنف، متعة اللامبالاة، متعة التماهي بجميلات الشاشة وأبطالها ولو اقتضى الأمر آلاف الدولارات وشيئًا من الصحة.

3 ـ **الاستلاب الثقافي**: ويحدث نتيجة للتغير الثقافي الذي يشهده مجتمع ما جراء الاختراق الثقافي المناهض، حيث تمرر أنساق معرفية ورموز ثقافية شتى تؤثر في ثقافة المجتمع المحلي. ويبرز هذا الاستلاب أكثر حدةً وأشدّ تأثيرًا مع انهيار الحدود تحت مظلة العولمة والقرية الكونية والمجتمع الشامل، لدرجة باتت الخصوصية الثقافية هاجس إستراتيجي يحرص بعض قادة الدول على تكريسه كما يتضح من قول مسؤول فرنسي: «أننا لا نبغي سوى المحافظة على منتجاتنا الثقافية الخاصة بنا، لا نريد أن تكون هوية أولادنا مصنوعة في هوليوود».

إزاء هذا الخوف من التشكل والتكيف الجديد للواقع يبرز الحذر والرفض للجانب المظلم من الإعلام. وهكذا بمجرد أن نعرض هذه الوقائع

تتبدى الأسئلة: كيف للوسيلة الإعلامية أن تتفاعل مع المعطيات الاجتماعية؟ أي تحول للسلطة تمارسه؟ وأي تربية اجتماعية تنشأ؟ أي تهديد للثقافة يحدث؟ أي معركة قيم نخوض؟ في ظل هذه الطروحات ليس من السهل الانتقال من سيئ الإعلام إلى جيده، ذلك أن كثير من مهندسي الإعلام يعملون بدعوة الجنرال ديغول لوزير إعلامه (ألان بيرفت) عندما قال له: ضع في اعتبارك أن الإعلام يهتم ب:

* **الإثارة** (حيث تفضل النكتة على عرض الحقيقة).
* **التشاؤم** (حيث الكارثة والمجزرة والجريمة تفضل على السلوك المستقيم).
* **الفردانية** (حيث المصالح الخاصة تتفاضل على العدد الأكبر من الناس).
* **المعارضة** (حيث كل ما هو ضد عمل السلطات يفضل على من سواه من الأنشطة).

* من مآثر الإنترنت.

في دراسة ميدانية[1] حول تأثير مقاهي الإنترنت على الناشئة (بعلبك/ لبنان 2006) حاول خلالها الباحثات القيام بدراسة حقلية للاطلاع عن كثب على المآثر التي يُحدثها الإنترنت في أوساط الشباب، وبعد أن تناولت الدراسة للإيجابيات لجهة ما يقوم به الإنترنت باعتباره:

- ✓ نافذة ومتنفس للذين يعيشون مجتمعات بطريركية مقيدة ومشددة.
- ✓ ينمي الهوية المشتركة للشباب بغض النظر عن العرق والبلد والطائفة والجنسية.
- ✓ أصبح بمثابة مرجع سريع ومنوع للمعارف والجامعات والمعاهد.
- ✓ فتح مجالًا للتسويق والتجارة عن بعد، ويتيح مجالات استهلاك خارج المجتمع المحلي.

(1) «تأثير مقاهي الإنترنت على الناشئة في منطقة بعلبك»، دراسة ميدانية أعدتها كل من الطالبات حوراء حمية، مي ناصر الدين، ناهية يزبك، لنيل شهادة الإجازة في الإشراف الصحي ـ الاجتماعي، كلية الصحة العامة، زحلة 2006.

- ✓ سهل فرص الحصول والبحث عن وظائف عمل في أي مكان من العالم.
- ✓ ساهم في عرض القضايا الإنسانية والمشكلات الاجتماعية وسبل الحلول المرتقبة لها.
- ✓ يقدم «استشارات» دينية عن الوعاظ والاعاة من خلال المواقع المتخصصة.

وبعد أن تبينت أوجه الإنترنت الإيجابية لجهة اعتباره وسيلة قيمة لناحية توفير بيانات، معلومات، معارف، سياحة، حقائق وحريات.. قررت الباحثات رصد السلبيات التي يحدثها الإنترنت في مجتمع محافظ فتبين لهن مدى التأثير لجهة:

1 . الإدمان على الإنترنت والانسلاخ عن الواقع

ويتجلى ذلك من خلال حالة الجلوس الدائم وتكثيف التواصل مع شاشة افتراضية، التي تعرض بدورها عوالم غير معروفة الأبعاد لهذا سُمّيت بالعلاقات الافتراضية، واعتبار الفضاء الذي تهيأه شبكة الإنترنت بالعالم الافتراضي، مثل هذا العالم الافتراضي أو الوهمي أدى إلى حالة انسلاخ للشباب عن الواقع الذي يعيشون، حتى أصبح أنيسهم في ظل الفراغ الوجودي على الصعيد النفسي والاجتماعي وكأنه نافذة هروب إلى عوالم جديدة لا يعهدها و يطمح إليها، وهذا ربما ما يبرر لنا حالة التعارف الكثيفة بين الفتيات والشباب في إقامة علاقات صحبة، فقد أشارت الدراسة إلى أن 23% يستخدمون الإنترنت بهدف محادثة الأصدقاء وللتعرف على آخرين، وأكد 61 % من أفراد العيّنة أن الحوار اليومي أدى إلى تعارف مباشر تجلى في المجالات التالية: صداقة 42 %، علاقة حب 31 % علاقة جنسية 9 %، تبادل ثقافي 6 %. هذا يعني أن الإنترنت أصبح بمثابة الغرفة الحميمية الخاصة التي تعزل الشاب عن المحيط، عن الآخرين، عن المشاركة الاجتماعية وللهروب نحو عالم جديد قوامه التسلية ليس إلا.

2 . الجنس على الإنترنت

من جملة ما يتضمّنه الإنترنت مواقع جنسية، وحيث حب الفضول لدى الشباب دائمًا هو استكشاف الممنوع والمحظور، باتت الفرصة هنا سهلة التناول

مع الإنترنت، حيث لا رقابة ومواقع متاحة بالمجان أو بالدفع لمن يرغب، وحيث كثافة مشاهد بشكل ثابت ومتحرك.. وأدت خطورة الموضوع بأن أصبح هناك ما يسمى بجنس الإنترنت (على شاكلة الجنس عبر الهاتف). حيث تتراوح المواضيع الجنسية عبره بين الصور العارية إلى أفلام جنس متنوعة يصل بعضها إلى حد الشذوذ، وكل ما من شأنه أن يضع الشباب في هوة الانحطاط الأخلاقي والقيمي أمام إغراء الشاشة للعروض الجاهزة تنفيسًا عن رغباتهم الجنسية المكبوتة بطرق غير سليمة. وقد بينت الدراسة بعدما سُئل أفراد العيّنة عن أكثر المواقع التي يزورونها بشكل دائم تبين أن هناك من نسبتهم 6 % يترددون بشكل دائم على المواقع الإباحية (سواء كانوا شبابًا أو إناثًا).

3. تحول العلاقة بين الأهل والأبناء

تبين الوقائع المسجلة عبر أكثر من دراسة متخصصة أو تقرير إعلامي أو منتدى حواري، مستوى التحول الذي أحدثه دخول الإنترنت على صعيد العلاقة بين أفراد الأسرة ليس لجهة الوقت الذي يستنزفه من جلوس الشباب إليه وانقطاعهم عن عالم أسرتهم لفترات طويلة، وإنما لجهة لعبه دورًا محوريًا كمرجعية لكثير من المشاكل النفسية والاجتماعية، فلقد أصبح رمز «WWW» الباب المعرفي والمرجع الأساس دون الأب والأم..ولدى سؤال أفراد عينة الدراسة المذكورة: هل سبق وحصل بينك وبين أهلك شجارٌ بسبب استخدامك للإنترنت؟ ليجيب من نسبتهم 44% بنعم حدث، (توزعت النسبة بين 11% عند الفتيات و 33% عند الذكور في مقابل 56% قالوا لم يحدث، ولم تشر الدراسة إلى سبب الشجار).

ما هي أبرز انعكاسات استعمال الإنترنت إذن؟ رغم الجدل القائم حول الإنترنت وفيما يقوم به، لا زال السجال قائمًا حول الدور الذي يلعبه، ففي الوقت الذي تُظهر دراسات عديدة دوره الإيجابي باعتبار مستخدمو الإنترنت أكثر اجتماعية عن غيرهم من الذين لا يستخدمونه، وبأنهم أكثر مشاركةً في النقاشات حول مختلف المواضيع السياسية والاقتصادية وغيرها من الموضوعات، وكيف أن متابع الإنترنت يتميز بقدرة عالية على متابعة الأحداث

المحلية والأخبار الدولية ويبقى على اطلاع لما يجري حوله' وبأن هواة الإنترنت يتمتعون بالمرح والود والقبول الاجتماعي والديناميكية في العمل عبر زيارة المواقع واستخدام البريد الإلكتروني ولا يعيشون في صومعة على عكس ما يعتقد البعض فيهم، يبقى الإنترنت في نظر الفريق الآخر الآلة التي تساهم في إغراق مستعمله بعالم وهمي ومنعزل بحيث تسلخه عن الواقع والحياة الاجتماعية، وبحكم خروجه (الإنترنت) عن الرقابة قد يصل الأمر حد المس بسلم القيم الذي نشأ عليها مستخدمه (معتقدات غريبة عن معتقداته/ دخوله عالم الجرائم المنظمة / القرصنة الفكرية والمالية..) كما أنه يصبح من السهل على مستخدم الإنترنت الوصول إلى المواقع الإباحية والمنحرفة ويمكن أن يُلغي التفاعل والتواصل الوجاهي مما أنشأ جيلًا لا يدرك إلا ما تقوله له المواقع دونما تدقيق أصحيحة أم غير صحيحة، وعزز بدوره ظاهرة الإدمان عليه بفعل مواقع التسلية واللهو التي تأخذ كثيرًا من أوقات الشباب يمكن الاستفادة منها في مواضيع أخرى أكثر أهمية.

5. مكان العمل:

تبرز أهمية العمل ليس فقط من خلال ما يقدمه من فائدة مادية تعين على متطلبات الحياة وإنما مؤشر هام لبلورة الشخصية ورسم الطموحات وتعزيز التنافس، وهو مهم بدوره في مكان ما برسم حياتنا الاجتماعية وتنشئتها وفق الأطر المفترضة، ويمكن أن ندلل على ذلك من خلال مثال الأولاد الذين يعملون بدوام جزئي أو بداوم كامل خلال إجازاتهم الصيفية، فهم وفضلًا عن رغبتهم في الاستقلال المادي عن ذويهم، فإن العمل يجعلهم أكثر نضجًا ووعيًا عندما يتعلموا المسؤولية ومهارات التفاعل وقيمة الوقت وحسن تنظيمه، كما أنهم يحصّلون خبرة في المجال الذين يعملون فيه. وقد لاحظ بعض السوسيولوجيين ظاهرة ازدياد الأولاد الذين يخرجون إلى العمل في عطلاتهم المدرسية أو خلال إجازتهم السنوية ليس بهدف تحصيل المصروف الشخصي فحسب وإنما للقيام بعلاقات صحبة وللاستحصال على خبرة، وبالمقارنة تبين وجود فوارق نفسية واجتماعية في التنشئة بين الأولاد الذين يعملون والذين لا يعملون، فالذين يمرّون بخبرات عمل هم أكثر ديناميكية في تعاطيهم مع

الآخرين، أكثر تحديدًا لخياراتهم المستقبلية لجهة التخصص ومجالات الأعمال. خاصة وأن بعضهم يتنقّل خلال مراحل حياته في أكثر من تجربة عمل، فقد تبين أن الشباب ما بين 18 و40 سنة يتنقّل في 11 مجال عمل، ولا شك أنه في كل مجال عمل يكتسب تنشئة ويصبح مدركًا لخيارات حياته.

6. مؤسسات المجتمع المدني والديني:

ثمة إجماع على أن الدين جزء لا يتجزأ من التنشئة الأخلاقية، بل إن الدين هو روح التربية الخلقية وقوتها المحركة، إذ يستمد المجتمع قيمه الأخلاقية وقواعد تنظيم السلوك من التعاليم الدينية التي تلعب دورًا فعالًا في الالتزام الشخصي أكثر من القواعد والقوانين الوضعية، ويعتبر تكوين الوعي الأخلاقي من أهم الأهداف التربوية الأساسية، وهو الخطوة الأولى من خطوات التنشئة الاجتماعية وضرورة من ضروراتها التي يجب توافرها، وهو لا يقتصر على المعرفة الخيرة واكتساب المفاهيم الأخلاقية وإنما يتجاوز المعرفة إلى تكوين النزعة الصادقة نحو الحقيقة والقيم...

من هنا **أولى** علماء الاجتماع أهمية قصوى للدور الذي تلعبه المؤسسات الدينية في التنشئة الاجتماعية فيما تتركه من مؤثرات على حياة الناس، في السابق كانت العائلة تتولى أمور أفرادها لما يتعلق باحتياجاتهم الروحية والاجتماعية، إلا أن اليوم بات هناك مؤسسات متخصصة لمن يرغب بتنشئة أبنائه على تعاليم دينه أو في نشاطات رياضية عبر أندية خاصة بالألعاب المتعددة، أو في دورات ثقافية مع معاهد التدريب المتخصصة أو في جميعها معًا عبر المخيمات الكشفية.. فضلًا عن ذلك توسّعت مؤسسات الخدمة الاجتماعية في عالمنا المدني فمع انهماك الأولاد أو الأهل في العمل وُجدت مؤسسات رعاية بديلة (دور حضانة للأطفال / ودور رعاية للمسنين..) ولا غرو ما لهذه المؤسسات من مهام تنشئة وعناية وتنظيم شؤون حياة الكثير من الناس. **ولكن كيف يمكن لمؤسسات المجتمع المدني أن تساهم بتنشئة؟ وأي تنشئة تلك؟.**

إذا سألنا مجموعة من الشباب المنخرطين في مؤسسات مدنية ماذا يعني انضمامها إليها؟ لوجدنا ثمة أسبابًا كثيرة تدفع هؤلاء للانضمام وهي تنسجم مع الفوائد التي يمكن أن نجنيها عبر التطوع مثل:

1 ـ تتعلم مهارات جديدة، أو تحسن من مهاراتك في التواصل.
2 ـ تمارس نشاطًا تحبه مع أصدقاء مماثلين في التوجه والهواية.
3 ـ تتعرف على أشخاص مختلفين عنك في السن والقدرات والديانة.
4 ـ تأخذ إجازة من روتين الحياة في العمل أو الدراسة.
5 ـ تكتسب أصدقاء جدد.
6 ـ تنمّي احترامك لذاتك من خلال المسؤولية الموكلة إليك.
7 ـ تشعر بمدى قدرتك على إحداث تغيير.
8 ـ تتعلم خبرات مهنية ومهارات قيادية.
9 ـ تعبر عن التزامك بقضية ما.
10 ـ تساهم في بناء المجتمع الذي تعيش فيه.

ولعل من أبرز الدوافع للعمل والتطوع في المؤسسات المدنية والأهلية يُختصر في المشاركة التطوعية النبيلة وهو المعنى العميق لكلمة «خدمة»، أي مجانية العطاء لصالح آخرين هم بحاجة، ووسيلة فاعلة لتعزيز مفاهيم التكافل والتشارك والتكامل والتفاعل والتساند. ويشير علماء الاجتماع بأن الأشخاص الذين يندمجون بالمجتمع ومؤسساته الخيرية ويُقبلون على التطوع للصالح العام عبر هيئات معنيّة بذلك يتمتعون أكثر من غيرهم بصحبة أوفر وبحياة إيجابية وسعادة أفضل، كما أن تدريب الشباب على التفكير بالآخرين وتقديم الخدمات الممكنة لهم خاصةً لذوي الاحتياجات الخاصة كالمعوقين والعجزة والمشردين من شأنه أن يقيهم تبعات خطر الانحراف والفراغ.

النشأة

يقول بعض رواد علم النفس الاجتماعي أمثال كلاكهون وموري: أن كل إنسان في نواح معينة:

* يشبه كل الأشخاص الآخرين.
* يشبه بعض الأشخاص الآخرين.
* لا يشبه أي شخص آخر . . .

obeikandl.com

باعتقاد هذان الباحثان أن كل إنسان يشبه كل الأشخاص لناحية العوامل البيولوجية والحاجات التي تكون عامة بالنسبة لكل الناس، أي لهم نفس الحاجات: الأكل/ المأمن/ الجنس/ الاجتماع/ ولكن طرق إشباع هذه الحاجات قد تختلف من ثقافة لأخرى وبين مجتمع وآخر، فهي محددة جزئيًا بالمجتمع الذي ينتمي إليه هذا الإنسان أو ذاك، وتلبية الحاجات بطرق مختلفة هو ما يجعل الإنسان يتشابه مع بعض الناس ويختلف مع بعضهم الآخر. أما هو لا يُشبه أي إنسان آخر فلاعتباره كائنًا قائمًا بذاته له مشاعره وتصرفاته الخاصة التي يحرص على أن يستقل بها، يتميز بها بملئ إرادته وبرغباته حتى يصبح فردًا له شخصيته الخاصة. وهذا ما نعنيه بالنشأة: **كيف ينشئ الإنسان ذاته بعدما تم تنشئته من قبل آخرين؟** يختصر الباحث الأمريكي (أريفنغ كوفمان) حياتنا ومكانتنا الاجتماعية والثقافية في تنشئتين:

أ. **التنشئة المتوقعة**: وهي ما نهيأ له منذ الصغر نحو المستقبل: الدراسة المناسبة/ العمل الممكن/ العلاقات الاجتماعية المطلوبة. وتتم عملية التهيؤ هذه عبر مقتضيات الإعداد التربوي وعبر كل ما من شأنه أن يجعل لدينا الإمكانية لأن تُصبح لنا مكانتنا الخاصة (التنشئة).

ب. **إعادة التنشئة**: وهي عملية يُعاود المرء فيها بناء ذاته بنفسه بعدما أخفق نتيجة ظروف حياة صعبة، لابد والحال هنا من إعادة تكيّف وتأقلم بين جماعته وذاته كي يحوز المكانة التي يستحق و يكون على مستوى الطموحات بعد إعادة هيكلتها (الدور).

وعليه تصبح إعادة التنشئة المعنى المشار إليه في النشأة، حيث تتبلور شخصية الإنسان في المراحل اللاحقة على التربية الأولى، حتى يصبح هناك ما يعرف بالشخصية الاجتماعية:

* الشخصية الاجتماعية:

إذا كانت الثقافة تمثل مجموع السلوك المكتسب بالتعلم من المجتمع الذي يعيش فيه الأفراد، فإنهم يمرون بعمليات دمج، وتعلم لطرق التفكير والعمل وبتعبير أدق هناك «تطبيع» وهي العملية التي تسهم في تلاؤم الفرد مع

الأعضاء الآخرين في جماعته التي تُعيّن له مقابل ذلك مكانة وتمنحه دورًا يقوم به في حياة هذه الجماعة، والمعنى المقصود من الدور هو مجموعة القواعد ومعايير السلوك المتعلقة بأوضاع متباينة يشغلها الفرد في المجتمع أو في علاقته مع الآخرين، وقد أمكن تحديد هذه الأدوار على ضوء النوع (ذكر/ أنثى) العمر (طفل/ مراهق/ بالغ/ مسن) وفي ضوء المهنة (محام/ طبيب/) وحتى في ضوء الصفة الاجتماعية (أعزب/ متزوج/ . .) ففي كلّ دور هناك تفاعل على أساس العلاقات، كما أن هناك انتماء لعضوية جماعات أخرى على ضوء التباين في العمر والنوع والمهنة، وبنتيجة ذلك يصبح الإنسان وحده القادر على تطوير سلوكه المكتسب بالتعلم وفقًا للدور المنوط به.

وكثير ما يلعب السياق الاجتماعي الذي ينتمي إليه الفرد دورًا في عملية التميز للشخصية وفي نظرة المرء لنفسه، فعبارة «حدثني عن نفسك» تبدو عبارة مباشرة وكافية لكي تعرّف عن شخص ما، ولكن نوع الإجابة يعتمد إلى حد كبير على نوع المجتمع الذي نسأل فيه مثل هذا السؤال، فالأمريكيون ـ على سبيل المثال ـ سيحدثونك عن سماتهم الشخصية (ودود/ دؤوب بالعمل/ أمارس الرياضة . .) أو عن صفات خاصة بالدور (إنني معلم / طبيب/ مهندس/ أعمل في شركة. .) وهنا نلاحظ بأن هناك ربط بين وصف الذات (الصفة) والسياق المهني إلى حد كبير (عرّف عن نفسه من يكون في المجتمع.) ولكن مع ذات الشرق الأقصى (اليابان / الصين . .) الأمر مختلف تمامًا هناك تركيز على البعد الاجتماعي أكثر (أنا جاد في عملي / أنا أحب المزاح مع أصدقائي. .) مما يعني أن أبناء شرق آسيا يصفون أنفسهم من خلال الإشارة إلى الأدوار الاجتماعية (أنا صديق جون . .) أما الذات العربية فهي تتراوح بين الأنا الخاصة والأنا المجتمعيه تبعًا لواقع التربية القائم فقد تكون الذات اتكالية وقد تكون تارة أخرى استقلالية ولكن الميل الواضح في الذات العربية هو وصف أنفسهم دومًا بالإشارة إلى آخرين (أطهو العشاء مع أختي / أذهب برفقة أبي/ . .إلخ).

إن حياة الناس هي خليط من الأدوار المتفاعلة، في أي موقع اجتماعي هناك صاحب دور يختلف بطبيعته عن شخص آخر، ورغم التنوع في الأدوار إلا أن الجميع متعاونون في شبكة من الأدوار المتساندة (التساند الوظيفي)

وبهذا المعنى يرتبط مفهوم الدور بمفهوم المركز الذي يحتله الفرد ضمن النظام الاجتماعي الذي يدخله، فالرجل مثلًا هو أب في نظام الأسرة، عليه أن يقوم بدور الأبوة، وفي عمله هو مدير عليه أن يقوم بدوره كإدراي في سياق مغاير وهكذا، حيث هناك مجموعة من الأنماط الثقافية المرتبطة بموقف معين على أنه السلوك المفترض الذي يجب أن يقوم به شخص يريد أن يكون اجتماعيًا. وبقدر ما يحسن المرء التوفيق بين أدواره المتعددة بقدر ما يكون ذو شخصية اجتماعية رائدة، ولكن ماذا يحدث إن لم يتوافق بأدواره؟ ماذا يحدث لو اختلفت الأدوار الموكلة إليه؟ هل يمكن أن يقوم الفرد بعدة أدوار في نفس الوقت دونما أن يحدث تنافر أو تضارب؟ في هذا السياق قامت السوسيولوجية (HELEN ROSE EBAUGH) باستجواب عينة من 1850 شخصًا مرّوا بتجربة حياة صعبة ثم انتقلوا ليلعبوا دورًا آخر مغايرًا لما كانوا عليه وأخصّهم المطلّقون، المنتهون من حكم سجن، المتعافون من الإدمان، المتقاعدون، الخارجون من الرهبنة.. كان الهدف من الدراسة معرفة ماهية الأدوار التي يلعبون وطبيعة التحول النوعي الذي حدث لهم نتيجة انتقالهم إلى موقع آخر في المجتمع، فوجدت أن هناك نمط حياة جديد حدث على أربعة مراحل:

أ ـ المرحلة الأولى، (doubt) تبدأ من مرحلة عدم الارتياح لما يقومون به ويسعون للتخلص من الموقع الذي هم فيه لأنهم غير متكيّفين معه.

ب ـ المرحلة الثانية (search for alternative)، تبدأ مع البحث عن خيار آخر يكون أخف وطأة في مؤثراته على ما هم فيه (حال الرجل غيرالسعيد في زواجه يبدأ جديًا في التفكير بالانفصال كخيار أكثر راحة).

ج ـ المرحلة الثالثة (departure) وهي مرحلة المغادرة للموقف المزعج أو الموقع غير المريح الذي هم فيه يرافقه نيّة بعدم العودة وترك الأدوار السابقة المرافقة له.

د ـ المرحلة الرابعة وتعرف ب (creation of a new identity) وهي الخطوة الهامة التي يصبو إليها «التاركون» أو المتحولون عن الأدوار السابقة غير المريحة نحو أخرى تُسهم في إعادة بناء شخصيتهم وهويتهم الجديدة.

على ما تقدم تفهم النشأة على أنها «استدماج» لمجموعة من القواعد والمعايير وأنماط سلوك تحدد الوظائف التي يقوم بها الأفراد في المجتمع (فهو اجتماعي لأنه يتصرّف في معظم المواقف بصورة متوقعة كما يريد المجتمع، أي استدمج نسق التوقعات المتبادلة المميزة في مجتمعه، فالطفل الذي ينشأ في ظل أبوين متسلّطين يستدمج صورتهما أو أسلوبهما)، ومن الضروري أن يتم التمييز بين الاستدماج INTERNALIZATION كامتثال للقواعد التي تستند إلى سلطة خارجية (مظاهر التنشئة/ المعايير الاجتماعية) وبين الطاعة والامتثال للقواعد التي تستند إلى سلطة داخلية ذاتية (صور التعبير الذاتي/ الإنجازات/ . . . .)

obeikandl.com

المصطلح الثالث
الثقافة والمثاقفة

عندما نتطرق في حديثنا اليومي إلى كلمة «ثقافة»، فسرعان ما يتجه تفكيرنا إلى المستويات الإبداعية في الفكر الإنساني مثل الفنون والأدب والموسيقى والرسم، غير أن علماء الاجتماع يستخدمون هذا المصطلح ليعني جوانب أخرى من أسلوب الحياة الذي ينتهجه أعضاء مجتمع معين مثل تقاليد الزواج وأنماط الحياة العائلية وأشكال العمل والاحتفالات الدينية وأسلوب الأزياء المعتمد، بالإضافة إلى وسائل الترفيه والترويح وغير ذلك من الظاهرات التي تمارس يوميًا داخل الجماعات الأولية أو غيرها.. وبهذا المعنى تصبح الثقافة انعكاس المجتمع الذي تنمو في كنفه وكلاهما متلازمان، إذ لا يمكن أن يوجد مجتمع دون ثقافة ولا يمكن لثقافة أن تنمو دون جماعات داخل مجتمع فهي الأساس الذي يرتقي به البشر من الكيان البيولوجي إلى المستوى الإنساني فالاجتماعي.

بين العلم والحضارة.... والثقافة:

يمكن فهم العلم على أنه مجموعة الحقائق التي توصل إليها العقل الإنساني في مراحل تفكيره وتجاربه المتراكمة عبر الزمن، فهو لا يختلف باختلاف الأذواق كما الثقافة ولا يتغير بتغير المصالح، أما الثقافة كلفظ مفرد يُراد بها في الاستعمال الأخذ من كل علم بطرف ولا يُراد بها التعمق في دراسة علم من العلوم لذلك يقولون «**تعلّم شيئًا عن كل شيء لتكون مثقفًا وتعلم كل شيء عن شيء لتكون عالمًا**»، أما عن كلمة حضارة، فغالبًا ما يستخدم الباحثون التعبيرين ـ ثقافة وحضارة ـ كمرادف للإشارة إلى مدلول

واحد، حيث يقال: فلان متحضر/ فلان غير متحضر/ بلد متحضر، وكما يوصف الأفراد والجماعات بالتحضر كذلك توصف الأعمال الإنسانية فالمعاملة المهذبة حضارة، احترام الوقت حضارة، تكريس حقوق الإنسان بكل وجوهها حضارة.

وبهذا المعنى يصبح المجتمع المتحضر هو ذلك المجتمع الذي له قيمه الروحية الرفيعة وأساليبه المادية المتطورة في مواجهة الحياة الطبيعية، والثقافة هي أسلوب الحياة السائد في مجتمع ما وثمرة الصفات الخُلقية والقيم الاجتماعية والمبادئ الروحية والأصول العقائدية، وبناء على هذا التعريف تغدو الثقافة والحضارة مترادفتان في الدلالة حيث يمكن اعتبارهما: ما توصّل إليه مجتمع من رُقي وتقدّم في الصناعات والمخترعات.

*** عناصر الثقافة:**

الثقافة سوسيولوجيًا هي: جوانب الحياة الإنسانية التي يكتسبها الإنسان بالتعلم لا بالوراثة، يتشارك فيها أعضاء مجتمع معين في مجالات التواصل والتعاون سواء عبر الجوانب المنظورة مثل طرق العيش وتقنيات البناء ووسائل الإنتاج أو سواءً عبر الجوانب غير المنظورة مثل المعتقدات والآراء والقيم التي تعتبر بمجملها مقومات الثقافة وعناصرها التي منها:

1 ـ القيم والمعايير: في جميع الثقافات هناك منظومة أفكار تحدد ما هو محبّذ ومرغوب وما هو غير ذلك وهذه الأفكار المجردة تكون بمثابة مفاهيم لتوجيه تفاعل الناس مع العالم الاجتماعي حيث تقرر لهم ما هو الجيد؟ ما هو المقبول؟ ما هو اللائق اجتماعيًا وغير اللائق؟ ما هو المرغوب فعله والغير مرغوب؟ مثل هذه الأفكار والمفاهيم هي ما يمكن تسميتها بالقيم، لأنها صفات ذات قيمة لما تقوم به من دور في تمييز الخطأ عن الصواب. أما عن المعايير فهي قواعد السلوك التي تجسّد القيم في ثقافة معينة. مثلًا: في الثقافات التي تُعلي من شأن قيم الكرم وحسن الضيافة فإن المعايير الثقافية تؤكد على أهمية تقديم الهدايا كما تشدد على أنماط السلوك الاجتماعي تجاه الضيوف أو المضيفين على حد سواء. وبالسياق ذاته يسود اعتقاد بأن

الآسيويين أقل اهتمامًا من الغربيين في القيم المتعلقة بالتطلّع وقيم تعظيم الذات والنجاح الشخصي والطموح الفردي، لكن الاهتمام الأبرز بالنسبة لهم ينصب بصورة أولى على أهداف الجماعة وقيم العمل المتآزر، فالحفاظ على العلاقات في تناغم اجتماعي له الأسبقية على إنجاز نجاح شخصي، والتميز الفردي ليس مستصوبًا في ذاته لأن النجاح ـ كقيمة ـ هو بحد ذاته هدف جماعي وليس استحقاق شخصي.

هذا يعني أن القيم الجماعية متقدّمة على القيم الفردية في مجتمعات الشرق (الأوسط والأدنى) حتى الشعور بالرضا عن النفس (كقيمة معنوية) مقترن بشعور رضا الآخرين فيما لو كان الشخص متناغمًا مع رغبات وأماني جماعته ووفائه إليها، لهذا يرددون أقوال مثل: النعجة التي تتبعد عن القطيع تشبع ضربًا/ يد الله مع الجماعة/ . .وحول تقدم القيم الجماعية على الفردية قرر ـ خلال السنوات العشرين الأخيرة ـ أحد علماء الاجتماع الأميركيين في أن يسجّل أبرز القيم المنتشرة في أكثر من ستين دولة، ليجد أن قيم الإنجاز/ الكفاءة/ الوطنية/ المساواة/ الإيمان/ الحرية. . موجودة في أغلب مجتمعات العيّنة بشكل بارز، وبأن هناك مجتمعات أخرى تتقدّم فيها قيم على حساب أخرى مغايرة. . لكن الشيء المشترك الذي وجده هذا الباحث في كل المجتمعات تقريبًا هو قيمة «الإحسان» في مختلف وجوهها أو تسمياتها (فعل الخير/ الصدقة/ التبرع/ المساهمة/ المساعدة) و قيمة BENOVOLENCE التي تتجلى في مظاهر عديدة مثل: التسامح/ الإخلاص/ الوفاء. .وهذا يبين أهمية القيم الجماعية وكيف أن الجماعة تعزز في أبنائها قيم تحرص على التناغم الاجتماعي.

وبالسياق ذاته قررتُ وفريق عمل مدرب خلال العام 2005 القيام باستطلاع رأي حول القيم الاجتماعية في عالم اليوم أيّة مفاهيم؟ ولغاية ذلك استجوب فريق البحث عينة من اللبنانيين في مختلف المناطق والمستويات والأثنيات عبر استمارة مقننة، ومن جملة ما سئل به المستجوبون:

*** ما هي القيم التي يجب الحفاظ عليها أكثر من غيرها؟ فأكّد 29 %**

على أهمية قيم الصدق والأمانة والوفاء، ويليها قيم الاحترام واعتبار الآخر وتقديره وقبوله بما نسبته 18%، فحسن التعامل والمحبة ومساعدة الغير بنسبة 15%، انتهاءً بالتسامح 4%.

* **ما هي القيم التي تحب أن تربي عليها أولادك؟** 23% قالوا احترام الآخر، 21% الصراحة، 9% الوطنية، 8% الأمانة، 7% محبة الناس، 6% المسؤولية، 4% الالتزام بالدين.

يمكن ترجمة ما تقدم في أن آراء الناس تتوزع في بنود قيّمة عدة منها: **قيم خاصة** تتعلق ببناء الذات، (النجاح/ الطموح / الكفاءة/ المسؤولية/ التهذيب) وقيم تدور حول قواعد التعامل مع الآخر من خلال: محبة الناس / احترام الآخر/ الأمانة / الصدق / قول الحق والصراحة / التسامح/ العطاء/ وما إلى ذلك. . . . .هذا يعني اتفاق الناس على شبكة معينة من القيم يجب أن تسود، فالإنسان لا يعيش في فراغ اجتماعي والآخرين لا يمكن أن يستمرّوا في نظام اجتماعي دون قواعد وسلوك متفق عليها، لا بد من «معايير» تحدد علاقتهم ببعضهم بعضًا وليس هناك أفضل من وجود سلم قيم راسخ وممارس.

ولكن هل يمكن أن تتغير القيم؟.

في الوقت الذي يعتبر بعض الباحثين أن القيم لا تتغير وإنما ما يتغير المعايير. باعتبار الأولى اعتقاد (إيمان) والثانية ممارسة (سلوك)، نجد باحثين آخرين يعتبرون أنّ كليهما يتغيران بمرور الزمن حيث كثير من المعايير التي كانت مألوفة في زمن ما **(كالمروءة مثلًا في عونة الجار وإغاثة القريب ومساعدة الغريب وكل الأفعال الاجتماعية النظرية القائمة على أواصر التعاون والصحبة والعشرة والقناعة)** لم تعد ذاتها اليوم مع طغيان القيم القائمة على المنفعة الذاتية والمصلحة والربح السريع واغتنام الفرص بالدهاء وانتشار الانتهازية والوصولية، مع تبرير الأخطاء واللعب على الألفاظ لقلب الأمور رأسًا على عقب كقول بعضهم: التهريب تجارة/ الرشوة إكرامية/ العلاقة الجنسية دون الزواج اختبار/ اقتناص الناس شطارة. . أفعال تتناقض مع شملة القيم التي كان يحملها الناس قبل عدة عقود. وفق هذا الوقائع أصبح البعض

يقدّر أن القيم أخذت تخبو لأن المعايير تغيّرت، ولأن المعايير تتغير أصبح يُطرح بشكل موازٍ لها قيم أخرى تؤكدها. . إلا أن التسليم بمثل هذا الافتراض لا يمكن الأخذ به لأن القيم لا يمكن أن تنتهي وهي تبقى على الدوام إنما الذي يتغير هو عدم أخذ الناس بها لظروف حياتية مستجدة. . من هنا يمكن الحديث عن تعديل في فهم القيم وأنماط السلوك وليس عن اندثارها، ومهما تصرّف الناس على هواهم باسم القيم الأخلاقية فإن الذي يتغير ليست مفاهيمها السامية وإنما الناس الذين لا يُحسنون ممارستها الحقة، هي ثابتة في معناها، في حقيقة وجودها من فجر التاريخ ولغاية اليوم. لأنه ما أن يقال انتهت القيم يعني ذلك انتهاء الثقافة فنهاية المجتمع، لهذا يحرص الجميع عليها وعلى بقائها ليبقى المجتمع وتبقى الجماعات.

2 ـ **العادات والتقاليد**: لكل ثقافة أنماط متميزة من السلوك قد تبدو غريبة لمن ينتمي إلى ثقافات أخرى، ويستطيع المرء أن يلاحظ ذلك عندما يسافر إلى مجتمعات أخرى ويلمح الاختلاف في كثير من جوانب الحياة، فقد يصاب أحدهم بالصدمة مثلًا عندما يشاهد عادات وتقاليد حفل زواج مجتمع أفريقي، أو قد يتفاجئ الزائر الغربي إلى بلاد المسلمين في عدم مصافحة المرأة (الملتزمة بتعاليم دينها) للرجل. . وبالسياق نفسه قد يثير زي قبائل الغابات المتعري في أستراليا مثلما يثير ارتداء النساء للنقاب في الباكستان وأفغاستان. . مثل هذا الاستغراب تجاه الظواهرالاجتماعية يطلق عليه تعبير **الصدمة الثقافية**، حيث يصاب الناس بالتشوش والحيرة عندما يجدون أنفسهم في بيئة ثقافية جديدة عليهم، لأنهم يشعرون بغياب النقاط المرجعية التي درجوا على الاستهداء بها، لهذا لا يمكن فهم الممارسات والمعتقدات بمعزل عن النطاق الثقافي المتداول ومكوناته وعناصره، بل يجب دراسة الثقافات في إطارها التاريخي ودلالاتها الخاصة، وفق ما يعرف بتعبير **النسبية الثقافية**، التي تعني ذلك الفهم المتداول بين الناس عن ثقافاتهم وحضاراتهم ليس من خلال النظرة الفوقية (كما في الأنوية الثقافية) وإنما «رؤية الأمور من خلال وجهة نظر الآخرين» وتقدير ثقافة الآخر انطلاقًا من وجهة نظره هو عبر احترامها باعتبارها شيئًا خاصًا للآخر.

في مؤلفهما «**التواصل العالمي: دليل الإنسان إلى الفعل**»، درس إدوارد هال ووليم هوايت دلالات نبرة الصوت والمسافة والزمن، خاصة بعدما لاحظا كيف يفسر أشخاص منتمون إلى ثقافات مختلفة ما يفعله غيرهم تفسيرًا خاطئًا، فساكن العربية السعودية مثلًا حينما يتحدث يخفّف من نبرة صوته حتى لكأنه يكلّم شفتيه تعبيرًا منه عن احترام من هو أعلى منه مرتبة (شيخ الجماعة)، إن حصل مثل هذا الأمر مع أحد الأثرياء الأمريكيين مثلًا فإن من شأن هذه الطريقة أن تجعل التخاطب مستعصيًا تمامًا، لأن من منظور الثقافة الأمريكية عندما يرفع المتكلم صوته يترتب بطريقة لاشعورية من مخاطبه أن يرفع بدوره من صوته، لذلك فإن الأمريكي يتكلّم بصوت مرتفع دائمًا. أما العربي عندما يخفف صوته أثناء تواصله مع أمريكي فمن شأن هذا الأسلوب أن يثير لدى الأمريكي سؤالًا مستنكرًا مفاده: أليس في كلامي ما يكفي من الاحترام!!..نرى في هذا المثال أن الأمريكي يمثل عالمًا مغايرًا لعالم العربي ويرمز إلى الخاصية الملازمة لفشل التخاطب بينهما ويكمن مصدر اللبس في المعرفة الشحيحة بالسياق الثقافي عن الآخر..

كذلك في مسألة المصافحة فاليابانيون لا يحبون المصافحة بقوة عندما يجتمعون بغرباء، بينما يختلف الأمر عند شعوب أخرى حيث يفترض بك أن تظهر اهتمامًا ودودًا بالشخص الذي تصافحه عبر الشد على يده كدليل تقدير، وفي السياق ذاته لا يفضل البريطانيون التقرب منهم كثيرًا أثناء التحدث معهم على عكس ما يحدث بين أبناء البلاد العربية.

3 ـ **اللغة واللهجات**: هي نظام من الكلمات ذات معان ودلالة يختص بحياة أفراد مجتمع معين، بما فيها الألفاظ المنطوقة والكتابات والأرقام والرموز والإشارات والتعابير غير اللفظية، فعبر هذه الوسائط ترتكز الثقافة وتتناقل، إذ عندما يريد أحدهم أن يتواصل مع غيره فهو بحاجة إلى لغة، وعندما يريد أن يعبر بما يشعر به يستخدم لغة (رسم/ شعر/ غناء) وهلم جرًا..لأن اللغة مفتاح التواصل والتعارف. تشير الدراسات إلى أن هناك ما يقارب سبعة آلاف لغة معروفة في العالم اليوم، قد تتعدد ضمن بلد واحد (الهند) وقد تكون واحدة في أكثر من بلد (العربية)، وتعتبر اللغة لغة معتمدة

عندما يتكلم بها من 200 حتى 200 مليون إنسان، حيث تصبح معلم ثقافي خاص بالذين يتكلمونها. وتبرز علاقة اللغة بالثقافة عبر غنى التعابير المتداولة ضمن محيط اجتماعي معين، فالـيف مثلًا له أكثر من سبعين اسمًا في اللغة العربية، ولدى الكنديون هناك 14 تعبيرًا للجليد، ثمانية منها لوصف حالته (SCAMED ice, CRACKED ice, FLOATING ice) وبالمثل يقال عن الخيل في اللغة الهندية حيث لها عشرات الأسماء، هذا إن دلّ على شيء إنما يدل على أن اللغة جزءًا من المجتمع الذي تنتمي إليه وبدونها لا يمكن أن تتجـد الثقافة.. فهي الوعاء الذي تنتقل به الثقافة من جيل إلى جيل ومن مجتمع إلى مجتمع ومن تاريخ إلى تاريخ.

أما اللهجة (dialect) فيمكن تعريفها بأنها الكلمات المتداولة لدى فئة معينة من السكان في بيئة جغرافية نتيجة خصوصية مجتمعية أو معرفية، وهي تختلف عن اللغة باعتبارها أكثر محليّة وأسهل لفظًا وأفضل استيعابًا.. وكثير ما تختلف اللهجات للمسمى نفسه بين بلد وآخر بل وضمن هذا البلد أو ذاك، وباستعراض لبعض التعابير المتداولة في الدول العربية يتبين اختلافًا بيّنًا في اللهجات لأشياء محددة بين دولة وأخرى، كما هو الحال مثلًا لكلمة: رجل، ففي بلاد الشام: هو زلمي، وفي الخليج: ريال، وفي المغرب العربي سيدي. حتى على صعيد البلد الواحد فقد نجد أن أبناء الشمال يختلفون في ألفاظهم ولهجاتهم عن أبناء الجنوب، وأبناء الساحل عن أبناء الجبل في تسمياتهم لكثير من الحوائج.

ويرجع انتشار اللجهة (العامية) على اللغة الأساس (الفصحوية)، برأي بعض الباحثين إلى أن اللغة الفصحى لا تستطيع مواكبة الحياة المعاصرة أو لأنها صعبة الفهم والتداول وباعتبارها نخبوية وعالمة، بينما اللهجة يسهل تداولها كلغة محلية محكية يتشارك فيها جمع من الناس بالاتفاق على دلالات ومسميات جرت عفويًا بينهم لمرونتها وسهولة لفظها، ولو اضطرهم الأمر لأن يقلبوا حرفًا أصيلًا بآخر أسهل لفظًا كما هو الحال مع اسم إسماعيل يصبح إسماعين، البنطلون = بنطرون، غسالة = خسالة، أو القاف تقلب همزة: رقيق= رئيئ، قرد = أرد، أو يضيفون حروف عن أخرى: ما بدّي (لا أريد)

تصبح أبدّيش، مع عليه (للتلطيف) تغدو معليش، ما في (لا يوجد) تصبح أفيش، لم يأت تصبح ما أجاش، وأحيانًا تستمر الشين في أواخر الأفعال: ما ألش شي، وتعني لم يقل شيئًا، أو ينقصون منها أحرف مثل: رائحة = ريحة، جبرائيل = جبريل، ميخائيل = مخايل.

ويُرجع الباحث اللبناني (أنيس فريحة) السبب في انتشار اللجهة العامية: إلى التأثر باللغة الآرامية ـ السريانية، ويعزو ذلك إلى أن في لبنان ـ وقبل الفتح العربي ـ كان هناك لهجات آرامية، وقد بقيت دوائر هذه اللغة سائدة في أسماء القرى والمدن، حيث يظهر أثرها في الضمير على مختلف أشكاله وفي الفعل وفي كثرة المفرادت الباقية في اللغة المحكية، «حتى أنك عندما تقرأ نصًّا سريانيًّا أو عبرانيًا وتترجمه ترجمة حرفية يتبادر إلى ذهنك التركيب العربي العامي»[1].

4 ـ **السمات والمركب**، هناك اتجاهات عدة تُفسّرالثقافة كظاهرة مجتمعية عامة، الاتجاه الأول يركز على أشكال السلوك المكتسب وهو ما يعرف بالاتجاه الواقعي، والاتجاه الثاني يرى الثقافة باعتبارها مجموعة أفكار يجردها العالم من ملاحظته للواقع المحسوس عن جماعة معينة وهو ما يعرف بالاتجاه التجريدي، لكن هناك من يوافقون بين هذين الاتجاهين من خلال تحليل الثقافة إلى عناصرها الأولية ويسمى الواحد منها **السمة الثقافية**، وهو العنصر الثقافي البسيط الذي لا يوجد حاجة علمية لتحليله إلى ما هو أبسط منه ويمكن ملاحظته حسيًّا (الحجاب، خاتم الخطبة، الدبكة والرقص.. سمات ثقافية)، وقد تجتمع العناصر لتؤلف ما يعرف باسم **المركب الثقافي** وهو كل ما يتكوّن من عناصر ثقافية ترتبط ببعضها ارتباطًا وظيفيًا، فإذا قلنا تعدد الزوجات عند المسلمين نجد أن هذا المركب الثقافي يتكون من عناصر متداخلة: شروط العقد + العدد الأقصى للزوجات + المساواة بينهن + توفير السكن + المهر. وقد قسّم الباحث الاجتماعي (وليم هوايت) الأنساق الثقافية في ثلاثة قطاعات كبرى تتكون منها الثقافة وهي:

(1) من دراسة: اللهجات الشعبية بين الأدلجة والمنهج الوصفي، د. رياض قاسم، المؤتمر الأول للثقافة الشعبية في لبنان، حلقة الحوار الثقافي، (بيروت، 1993).

1 . **الأفكار** والعقائد والاتجاهات الموجودة في عقول الأفراد.

2 . **الأشياء** المادية والمحسوسة التي يعطيها الإنسان معنى محددًا.

3 . **العلاقات** وخطوط التفاعل والاتصال عند البشر سواء بين بعضهم البعض **أو بين البشر والأشياء.**

ويرى بأن المركبات أو النظم الثقافية هي ما تتداخل فيها الأشياء والأفكار والعلاقات كقولنا نظام الزواج: المسكن، الأولاد، الغذاء، التربية، الرعاية، القيم والمعتقدات . .

المثاقفة

هو مصطلح ابتدعته أقلام الأنتربولوجيين الأمركيين في حدود العام 1880، وكان الإنجليز يستعملون بدلًا عنه مصطلح التبادل الثقافي (Cultural exchange)، في حين آثر الإسبان مصطلح التحول الثقافي (Transculturation) وفضل الفرنسيون مفهوم تداخل الحضارات (Interpénétration des civilisations)، إلا أن مصطلح المثاقفة أصبح هو الأكثر تداولًا وانتشارًا. يحاول هذا المفهوم أن يختزل واقع تعايش وتلاقح ثقافات مختلفة، وبهذا السياق تصبح: المثاقفة، التثاقف، التثقيف، التمثل الثقافي، التكيف الثقافي، acculturation هي اسمٌ واحد لعملية معرفية يتم من خلالها اكتساب صفات حضارية، بالنسبة للفرد أنها أشبه بالتنشئة الاجتماعية التي تلعب فيها اللغة دورًا جوهريًا في تعزيز التكيف، أما بالنسبة للمجتمع فهو عملية انتشار القيم والأفكار والأحكام الاجتماعية التي يستطيع خلالها جماعة معينة اكتساب الصفات الحضارية لجماعة أخرى من خلال التواصل والتفاعل، وتفترض المثاقفة ـ أولًا ـ احتكاكًا مطولًا بين ثقافتين مختلفتين ثم تأثير أحداهما بالأخرى بحيث تتحول أو تتعدل معالم الثقافة المحلية بما هو متشابه مع نماذج الثقافة الوافدة، إلا أن دخول مثل هذه السمات غالبًا ما يسبب صراعًا بين قيم دخيلة وقيم أصيلة، لهذا تبقى السمات الثقافية في عملية التثاقف مرهون انتشارها بمدى التقبل والاستعداد الذهني والمادي والاجتماعي عند

الناس. ذلك لأن المجتمعات ليست كلها متكافئة في قدرتها على الإبداع والابتكارات، فيصبح هناك مجتمعات تنتج وأخرى تستهلك وكثيرًا ما يلعب في مسألتي الإنتاج والاستهلاك عوامل سياسية واقتصادية. تجعل من يستقبل (يستهلك) على حذر إذا كان ذا ثقافة مختلفة في سماتها عن ثقافة المجتمع الذي يرسل (المنتج) كما هو الحال في الصراع القيمي بين الشعوب الشرقية (العربية/ الصينية/ اليابانية) إزاء ثقافة الحضارات الغربية، حيث يعتبرونها بمثابة غزو ثقافي نظرًا للتبادل غير المتكافئ.

وقد يتخذ التبادل صورة التثقيف بالإكراه أو بالعنف، كما كان يحدث خلال فترات الاستعمار والغزوات التي تدفع بالمستعمر إلى إغراق المناطق التي يحتلها بكثير من منتوجاته الصناعية بغية تنشيط عجلة الاستهلاك لمنتوجاته وتأمين الربح الاقتصادي، ومع الوقت يأخذ الناس بالتأثر ليس بالصناعة والاقتصاد وحسب وإنما بالثقافة التي ترافقها، على أنه يجب ألا تفهم الثقافة كأشياء مجردة بل كعناصر تجسدها وتحملها الجماعات البشرية تتمثل في جميع مظاهر التعبير الإنساني، سواء تعلق الأمر بالأدب أو الفنون أو المعتقدات والأخلاق أو اللباس والسكن والأكل وهذا هو التعريف السائد في علم الاجتماع الأمريكي.

*** أنواع المثاقفة:**

يميز المؤرخون بين نوعين من المثاقفة:

1 ـ **المثاقفة التلقائية**: وتندرج في إطار التلاقح الناتج عن الدخول الإنمائي وعن الرغبة في تعزيز فرص السياحة والسفر وتدريب اليد العاملة واستقطابها أو عبر الاتصالات السلمية بواسطة التجارة كما هو الشأن بين كندا والشمال الحالي للولايات المتحدة الأمريكية.

2 ـ **المثاقفة المفروضة**: وتتم عبر السيطرة الاستعمارية والنفوذ السياسي أو العسكري بصفة مباشرة وهذا ما حدث بالفعل بكل من المكسيك والبيرو غداة الاكتشافات الجغرافية الكبرى. وقد أدى انتشار حركات الاستقلال

خلال القرنين التاسع عشر والعشرين إلى ظهور ما اصطلح عليه بالمفردات (reserves)، وتمثل أراضي محجوزة يقطنها السكان الأصليون.

وعادة ما تمر المجتمعات النامية من مثاقفة تلقائية إلى مثاقفة مفروضة، ما دام أن القوة الاستعمارية تسعى إلى إحكام السيطرة بشكل مباشر على القاطنين بالقرب من مناطق نفوذها. ولكننا قد نجد حالات معاكسة يتم المرور فيها من مثاقفة مفروضة إلى مثاقفة تلقائية. ونذكر في هذا الإطار بما وقع ببعض المستعمرات الإسبانية بعد ثورة 1680 بمنطقة ريوغراندي (Rio Grande): فبالرغم من إفشال الثورة لم يتمكن الإسبان من إعادة السيطرة بشكل مباشر على الهنود، مما دفع بهم إلى إنشاء نظام المفردات.

أما من حيث مسارها ونتائجها فتنقسم المثاقفة إلى مستويين:

1 ـ **نمط الدمج**: ويتميز باقتباس النمط المحلي لعناصر أجنبية دون أن يؤدي ذلك إلى تغيير كبير في قيم الثقافة المحلية. فقبائل النباهوس (Navahos)، والتي كان سكانها نصف رُحّل، كانت تعتمد في عيشها على الصيد والالتقاط، وقد دفعها احتكاكها واتصالها بمراكز الاستيطان الإسباني إلى الاستقرار واعتماد الفلاحة. أما قبائل الكواكيوتيل (Kwakiutl) المتواجدة بشمال غرب المكسيك، فكانت تربطها وباستمرار علاقات سلمية وتجارية بالأوروبيين، وكانت تحصل على السلع الأوروبية مقابل تقديمها فرو ثعالب الماء. وقد أدى الأمر إلى انتشار ظاهرتي المنافسة والمزايدة على حساب التبادل، وفي الغالب لا تؤدي هذه التغييرات إلى انهيار الثقافة المحلية.

2 ـ **نمط التمثل**: ويعني تشرّب ثقافة مجتمع معين لعناصر الثقافة الغربية يوازيه القضاء على التقاليد المحلية والانقياد لقيم المجتمع المسيطر. (التبدل الحاصل في المجتمع اللبناني الذي تغير بفعل أبنائه المغتربين واستقدامهم عادات أخذ يمارسونها كما في المجتمع المهاجر إليه).

وقد تتوالى كل الأنماط عبر الزمان بالنسبة للمجتمع الواحد فنمط الدمج

يوازي حالة المثاقفة التلقائية في حين يتماشى نمط التمثل ووضعية الاستعمار والسيطرة المفروضة. ولكننا لا نستطيع أن نجزم بمرور ضروري للمثاقفة في مسارها من مرحلة الدمج إلى مرحلة التمثل، إذ قد نجد في بعض الحالات المعاشة يوميًا نوعًا من الاصطدام بين ثقافتين مختلفتين كحالة من الازدواجية، يسايرون ثقافة المجتمع المسيطرة وهم يعيشون وسطه، ثم لا يفتأون يتخلون عن هذه القيم عند عودتهم إلى مجتمعهم الأصلي.

* هل التغريب وجه من وجوه التثاقف؟

التفرنج، التأمرك، التأورب وبتعبير أشمل التغريب، مصطلح جديد ـ قديم يتم تداوله في الأدبيات السوسيولوجية، فجميعها تشير إلى معنى دلالي واحد وهو تأثر أبناء الشرق التقليدي أو المجتمع العربي المحافظ لسمات المجتمع الغربي في كثير من عوائده، لدرجة بات يطلق على كل من يتمثل بالغربيين في أسلوب حياتهم تعبير «ستايلو غربي» (أي نمط تفكيره وحياته غربي الطابع)، قد يتعدى دور التغريب طابع التثاقف عبر عمليات تبني بشكل مدرك نوعًا ما للفئات النموذجية الغربية، فقد لاحظ الباحث الفرنسي (أوليفيه روا) وجه آخر للتغريب يتمثل في سوسيولوجيا العائلة لدى الجماعات المسلمة في أوروبا، حيث ينزع هؤلاء ـ سواءً كانوا في المهجر أو عند العودة إلى بلد الأم ـ نحو الأخذ بما هو سائد في المجتمع الغربي ومنها انخفاض معدلات الخصوبة والانتقال نحو تكوين عائلات نواتية وارتفاع المستوى التعليمي عند الإناث وترك الحرية لهن لاختيار الاختصاص ودخول معترك العمل، والأهم من ذلك إعادة تركيب العلاقات القائمة بين الرجال والنساء على شيء من المساواة والشراكة، حيث في المجتمع الغربي غالبًا ما تعمل المرأة المسلمة خارج بيتها، كذلك أرخت الذهنية الغربية بظلالها على أشكال جديدة في العلاقات الاجتماعية كالزواج خارج الروابط التقليدية (كأن تتزوج مسلمة عربية من مسلم بوسني أو من أمريكي أسلم حديثًا).

هذا يعنى ارتياد أفكار جديدة وأوساط حديثة انضم إليها أفراد قادمون عبر التزام إرادي. إلا أنه وفي المقابل بات التغريب يُحدث صدمة ثقافية حين

أخذ يسرّب عادات مغايرة للثقافة المحلية وتقاليد المجتمع المحافظ على تراث ديني أو اجتماعي. حتى تكوّن رأي بأن ما يخلخل المجتمع التقليدي مرده دائمًا إلى التغريب والمثال على ما رصدتهُ (الكاتب) مع أحد طلابي لظاهرة انتشرت مؤخرًا (2009) في لبنان تُعرف بشباب ال: EMO وهو مصطلح مشتق من كلمة emotion الإنكليزية، بدأت هذه الظاهرة خلال الثمانينات وقد عرفت حينها بحركة ال: PUNK ROCK (as in the total disregard careless and for everthing in life) عندما ظهرت في أمريكا وأوروبا وامتدت إلى العديد من الدول منها لبنان حتى أخذ بعض شبابه يتمثل هذه الظاهرة إما شكليًا (عبر تقليد الشكل والمظهر من حيث اللبس وتسريحة الشعر والتدخين ووضع الأقراط في مناطق حساسة من الجسم) وإما فعليًا عبر وضع المكياج الفاقع (غالبًا يكون باللون الأسود أو الزهري) وطلاء الأظافر باللون الأسود ولبس أكسسوارات معدنية ووضع وشم خاص وتعاطي المخدرات والكحول، كل ذلك اعتقادًا منهم أنها تبعد عنهم مشاعر الإحباط واليأس الذي يعانونه، وزيادةً في ذلك يعمدون إلى إيذاء أنفسهم (self-infected wounds) عبر جرح أطراف أجسادهم بأدوات حادة لتخفيف الألم النفسي وقد يصل بهم الأمر إلى الانتحار من حيث لا يدورن. من سمات هذه الظاهرة الشبابية أنهم:

- ✓ **يمارسون طقوس وعادات خاصة فيما بينهم (اعتماد اللون الأسود/ تسريحة الشعر وإطالته حتى يغطي العين اليمنى / طلاء الأظافر عند كلا الجنسين / وضع الأقراط بشكل غريب).**
- ✓ **يجتمعون في أماكن معينة كالمقابر أو يقصدون أندية ليلية محددة.**
- ✓ **ليس لديهم مشاعر حب أو أية مشاعر إنسانية أخرى، مغتربون عن عالمهم ولا يتأثرون بشيء.**
- ✓ **يعقدون حلقات سهر وترفيه يشوبها الجنس والإدمان والعبثية.**

يحدث التثاقف من خلال طرق عدة فقد يأتي عن طريق الحرب والإخضاع والاحتلال العسكري والاستعمار أو عن طريق التبادل التجاري والعمالة والهجرة، وأما عبر وسائل الإعلام ومعاهد التدريس والصرعات

الثقافية، وفي مجمل الطرق نادرًا ما يتم التبادل بنفس الدرجة حيث أن المجتمع ذو التكنولوجيا البدائية والتابع سياسيًا غالبًا ما يتبنى ثقافة المجتمع المتسلط، لهذا يرتدي التثاقف دائمًا وجهين: إيجابي: إذا كان التبادل الثقافي متوازنًا (حوار ثقافات / ملتقى حضارات) وسلبي: إذا كان التبادل غير متكافئ (استعمار / أسواق مفتوحة / مصالح..).

خلاصة:

يستخدم مصطلح الثقافة في أكثر من سياق، بالنسبة لعلم الاجتماع لا تتحدد الثقافة فقط بالفنون الجميلة أو الأفعال الذكية، وإنما تشمل كل الأفكار المتداولة ضمن المجتمع، بدءًا من طريقة تحية الناس لبعضهم البعض: كيف يحيون وبماذا؟ انتهاءً بأضخم الصناعات. وعلى ذلك يصبح:

- إعداد الطعام ..**ثقافة.**
- طرق الزراعة وتحضير المواسم والمونة.. **ثقافة.**
- تحضير المناسبات وإتمام الحفلات... **ثقافة.**
- توجيه الأولاد وترفيههم.. **ثقافة.**
- كتابة الشعارات والعبارات على الجدران.. **ثقافة.**
- بناء البيوت وكيفية تجهيزها.... **ثقافة.**
- خطوط الأزياء وعالم الموضة.. **ثقافة.**
- الأمثال السائرة والقصص الشعبية.. **ثقافة.**

في كل مظهر من مظاهر حياة الناس اليومية ثمة ثقافة وراءه، لأن الثقافة لا تنشأ من فراغ، إذ عندما يتشارك أفراد محددون أو جماعات في نمط حياة خاص وممارس في أكثر من مجال يصبحون مجتمع له ثقافة.. من هنا يعتبر المفهومان ـ الثقافة والمجتمع ـ مترابطان كأن نقول مثلًا ثقافة المجتمع الأمريكي، ثقافة المجتمع اللبناني، ثقافة المجتمع العربي حيث لكلٍّ ثقافته الخاصة. وحينما يتشارك أناس نفس الاهتمامات والموروث الثقافي عينه،

العادات والتقاليد المماثلة والأذواق ذاتها، فإنهم يعتبرون جماعات ثقافية. وعلى هذا الأساس تفهم الثقافة على أنها الكلّ المعرفي الذي يحمله أيٌّ منا لجهة الأفكار والقيم والقواعد الاجتماعية، هي الشكل المتمثل في ملامح المجتمع لجهة التقاليد والعلوم وأسلوب الحياة كما يمكن أن تكون السمات الخاصة بفئة معينة من الناس.

obeikandl.com

obeikandl.com

المصطلح الرابع
التمييز والتحيز

كيف يمكن لأفراد من جماعات مختلفة أن يتواصلوا؟ هل يتفاعلون كالجماعة المتماثلة على شيء من التشابه والانسجام أم أن الاختلاف يحول دُون ذلك؟ ماذا يمكن أن يحدث في ظل الاختلاف؟

حول هذه التساؤلات يقرر الباحثون الاجتماعيون دراسة تصرفات الناس فعليًا على الأرض في مختلف المواقف فتُجرى للغاية مقابلات مباشرة مع غرباء إلى البلد المضيف، ثم تُراقب تصرفات المواطنين تجاه أبناء الأقليات الأخرى الذين ينتمون إلى ثقافات وأديان وأعراق متباينة، ولعل أبرز الملاحظات التي ترد في هذا الإطار أن التعامل بين الناس المختلفي الانتماء غالبًا ما ينطلق من التمييز العنصري، مثال أن:

- ✓ **ذوي العرق الأسود يتجنبون الاختلاط بجارهم من العرق الأبيض في السكن، لا لشيء بل لأنه يعرف بأن الأبيض يمقته.**
- ✓ **تعاطي المخدرات وارتفاع نسبة الجريمة ووقائع الاعتداء والأخبار السيئة غالبًا ما تُعزى إلى أبناء الأقليات الوافدة.**
- ✓ **عمليات التفاوض في البيع والتبادل التجاري وشؤون حياتية أخرى (علاقات حب/ زواج/ صداقة الأطفال في المدرسة) كلها محكومة بأفكار سلبية منمطة عن الآخرين يشوبها الكثير من الحذر والتوجس.**

لماذا تُبنى التصورات المعرفية تجاه الآخرين بناءً على اختلافاتهم العرقية

أو الجنوسيّة أو الطبقية أو الدينية؟ لماذا ـ وبشكل فرضي ـ يُحكم على الناس من خلال الاعتقادات المسبقة عنهم؟ أهو التميز أم التحيّز.

*** التمييز:**

في معجم العلوم الاجتماعية ورد هذا المصطلح بتعبير «تمايز «Distinction» ويستخدمه علماء الاجتماع للإشارة إلى الفروقات الطبقية وتمفصلها في حياة الناس اليومية وتكيّفهم مع آلياتها، وثمة باحثون قصدوا بهذا المفهوم الاتجاهات القائمة بين الجماعات **(وذلك على أساس المعلومات المفترضة عن هؤلاء الأشخاص)** سواء كانت اتجاهات سلبية تتسم بالنفور والتجنب والعداوة والكراهية، أو سواء باتجاهات تعصبية قاسية تتمثّل بعدم التقبل التام للآخر وهو ما يعرف بالاتجاهات التعصبية العنصرية. وقد تتجلى هذه الاتجاهات في أشكال متنوعة، أبرزها:

1. اتجاهات تعصبية ضد المرأة (تمييز جنوسي).
2. اتجاهات تعصبية على مبدأ اللامساواة (تمييز طبقي).
3. اتجاهات تعصبية دينية (تمييز طائفي).
4. اتجاهات تعصبية قائمة على انتماء قومي أو عرقي (تمييز عرقي).

1) التمييز الجنوسي

تعد الاتجاهات التعصبية ضد المرأة أو التعصّب لجنس دون الآخر من أشكال التعصّب الظاهري في بعض المجتمعات، وغالبًا ما يلاحظ مثل هذا التميز في المعاملات اليومية لجهة العمل والدراسة والدور الاجتماعي والشأن السياسي، حيث لازال هناك ما يشبه الإجماع على الخصال المميزة بصورة نمطية لكل من الرجل والمرأة، فالرجال متمسكون بالكفاءة والاستقلال وما يرتبط بهما من خصال نوعية في البطولة والريادة، بينما تتسم النساء بالتعاطف والتعبيرية وما يرتبط بهما من خصائص نوعية. وقد شمل التمييز الجنوسي جوانب اجتماعية عديدة أهمها التعليم والنواحي الأكاديمية إذ لا زال بنظر

بعض المنظّرين تخصصات مقصورة على الرجال دون الإناث، ويكون الوضع أكثر حدّة في المجتمعات الشرقية/ العربية حيث العديد من أقطارها تنظر إلى المرأة نظرة دونية، ويضعونها دائمًا في مكانة أو مرتبة وضيعة رغم تقلّدها المناصب المهمة (لدرجة لا يتقبل بعضهم ـ مثلًا ـ فكرة أن يكون قاضي المحكمة أو كابتن الطيران المدني أو طبيبة الجراحة ....من النساء).

ولكن ماذا يعني أن يكون الإنسان رجلًا؟ وماذا يعني أن يكون امرأة؟ تتوزع تفسيرات علماء الاجتماع للاختلافات القائمة وأوجه عدم المساواة بين الجنسين في ثلاث اتجاهات متعارضة:

1 . **الاتجاه الأول**، يتمثل في الميل إلى **اعتبار الخصائص البيولوجية أساسًا** لاختلاف السلوك بين الرجال والنساء، فالذكور عدوانيون ومتسلطون، أما الإناث فهن سلبيّات وخاضعات، الذكور يظهرون أكثر خشونة في أساليب حياتهم وفي لغتهم (وعواطفهم) تجاه النساء، وتبين دراسات علم النفس الاجتماعي أن النساء غالبًا ما يكن أكثر عاطفةً وانفعالًا وأكثر مسايرة من الرجال ويملن في الغالب إلى علاقات منسجمة مع الآخرين بطريقة عملية أكثر من الرجال.

2 . **الاتجاه الثاني** يعود إلى الأهمية التي تنمّيها عملية التنشئة الاجتماعية وتعلّم الأدوار وطرق التربية، فالنساء مثلًا في جميع الثقافات يتحملن المسؤولية الأولى عن تربية الأطفال ورعايتهم ويعتنين بمعظم الأعمال المنزلية، بينما يتكفل الرجال بتدبير المعيشة للعائلة، وقد أدى تقسيم العمل السائد بين الجنسين إلى ترتيب الرجال والنساء في مواقع غير متساوية من حيث القوة والوجاهة والثروة.

3 . **والاتجاه الثالث** يعتقد بأن لا الجنوسة ولا الجنس يقومان على أسس بيولوجية بل هما نتيجة تصورات اجتماعية، أمر نسهم في صنعه وتنميته خلال حياتنا اليومية عبر تفاعلنا الاجتماعي بالآخرين، حيث من الوجهة الاجتماعية ننتج ونعيد إنتاج الجنوسة عبر آلاف الأفعال والممارسات التي نزاولها كل يوم.

وتمثل الفوارق الجنوسّية وعدم المساواة شكلًا مهمًا من أشكال التراتب والتدرج الاجتماعي التي لا زالت قائمة في معظم المجتمعات، سيما في ثقافة وحياة الجماعات التقليدية حيث الجنوسة تشكل عاملًا أساسيًا في بناء أنواع الفرص وخيارات الحياة التي يواجهها الأفراد، كما تلعب دورًا في تشكل الأدوار داخل المؤسسات الاجتماعية، ورغم أن دساتير دول كثيرة تنص صراحة على المساواة بين جميع المواطنين في الحقوق المدنية والسياسية وفي تحمل المسؤوليات والواجبات وتولي الوظائف العامة، إلّا أن الواقع يناقض روح التشريعات، خاصة إذا كانت التشريعات لا تواكب مستجدات العصر، فتنطلق على ضوئه احتجاجات المطالبة بالإلغاء أو التعديل أو العمل على تشريع جديد، ومن الأمثلة على ذلك حملة الاحتجاج الذي أطلقتها نساء لبنانيات (خلال العام 2009)، حيث هناك ما يقارب عشرات الآلاف من النساء اللبنانيات متزوجات من غير لبنانيين ولا يقرّ لهن القانون اللبناني حق الحصول على الجنسية اللبنانية أسوةً بالدول الأخرى.

ذلك أن الوضع القانوني للمرأة في لبنان لجهة الجنسية ينص على:

- ☆ **تصبح المرأة الأجنبية التي تقترن بلبناني لبنانية بعد مرور سنة على تسجيل زواجها بناء على طلبها، وتبقى المرأة اللبنانية التي تقترن بأجنبي لبنانية، إلى أن تطلب هي شطب قيدها من سجلات الإحصاءات لاكتسابها جنسية زوجها، ويجوز للمرأة التي فقدت جنسيتها اللبنانية إثر اقترانها بأجنبي أن تستعيد هذه الجنسية بعد انحلال الزواج بناء على طلبها.**
- ☆ **والأجنبي الذي يقترن بلبنانية ويثبت أنه أقام إقامة منتظمة في لبنان مدة سنة منذ اقترانه الحق في أخذ إجراءات التجنس اللبنانية بموجب مرسوم من رئيس الدولة، لكن القوانين المتعاقبة أدخلت بعض التعديلات والتناقضات على هذا الصعيد.**
- ☆ **أما بالنسبة إلى جنسية الأولاد فإن القانون اللبناني ينص على أن الجنسية تنتقل بالأبوة ولا تنتقل بالأمومة إلا في بعض الحالات الاستثنائية (مما يعني أن أولاد المرأة اللبنانية من أب أجنبي ليسوا لبنانيين).**

وهذا دفع بالهيئات والجمعيات الأهلية اللبنانية المعنية بقضايا وشؤون النساء في لبنان، إلى تنظيم حملة تحت عنوان «جنسيتي حق لي ولأسرتي» ورفعها مذكرة مطلبية إلى الحكومة والبرلمان اللبناني، و إلى لجنة الأمم المتحدة المعنية بالقضاء على التمييز ضد المرأة في جنيف، تطالب فيها «بإصدار قانون جديد للجنسية وفقًا لاتفاق الطائف الذي ينص على أنه «**يعد لبنانيًا من وُلد لأب لبناني أو أم لبنانية**». كما طالبت المذكرة برفع التحفظ عن بنود «**الاتفاقية الدولية للقضاء على جميع أشكال التمييز ضد المرأة**» (سيداو)، لاسيما البند الثاني من المادة (9) بما يخص الحملة والتي تطالب الدول الأعضاء بها وهي «**إعطاء النساء نفس حقوق الرجال فيما يتعلق بجنسية أولادهما**».

يبدو الإجحاف في حقوق النساء ليس في لبنان وحسب، وإنما في مختلف الدول، حيث نجد النظرة إلى المرأة لا زال يشوبها نوع من التمييز الجنوسي، ففي أمريكا مثلًا كأكثر الدول تحضّرًا لازالت نساء كثيرات تتحدث عن ظاهرة التمييز الجنوسي (sexism) وعن تحامل الرجل على المرأة ومنافسته لها في ميدان الأعمال، فهن مستاءات لأن كل مراكز القيادة في العمل الحكومي والجيش والشركات الكبرى ومؤسسات الإعلام والجامعات يتولى إدارتها «رجال»، وهذا برأيهن دليل عن مدى تحيز الرجال تجاههن ورغبتهم في أخذ أدوار القيادة والمكانة من أمام النساء، وذهبت بعضهن للحديث عن اضطهاد غالب على أمرهن، فمثلًا إذا قررت إحداهنّ أخذ قرض من المصرف المركزي فإن حظوظها بالحصول عليه معدومة إذا كانت عزباء، قد لا يكون مدير المصرف لديه شيء من التحيز على النساء وإنما «يتبع التعليمات» التي تفضي وجود تمييز على صعيد التعامل في المعاملات المصرفية بين الرجل والمرأة.

كذلك هناك شكوك من أن تكون المرأة طبيبة ماهرة، في عام 2004 أقيمت دعاوى قضائية جماعية ضد اثنين من كبار أرباب الأعمال الأمريكيين، فقد ادعت موظفات أميركيات بأن هؤلاء مارسوا التمييز ضدهن في الترقيات إلى مواقع الإدارة، وفي الوقت الذي يقول فيه المسؤولون الذكور بأنه ليس هناك تمييز وأن كل ما في الأمر ليس هناك نسوة مؤهلات بما فيه الكفاية، لا

زال الجدل محتدمًا في أوساط تجارية محلية وعالمية وبلدان كثيرة ما إذا كانت المرأة ممثّلة بشكل كافٍ أو لا في صفوف الإدارة العليا، سيما وأن أعمالهنّ تتناسب فقط مع مهن معينة حسبما بينت دراسة إحصائية عن أبرز المجالات التي تعمل بها النساء، فكانت النتائج على الشكل التالي:

٩٧٪ يعملن سكرتيرات	44% مدرسات في الكلية.
٨٩٪ ممرضات	30% محاميات.
٨٢٪ معلمات ابتدائي	23% طبيبات أسنان.
٨٠٪ عاملات اجتماعيات	13% مهندسات.
٦٪ عاملات في البيع	3% أطفائيات.

يتضح ممّا تقدم أن المرأة تحتل موقعًا مميزًا وربما دونيًا عن الرجل في معظم المجتمعات التقليدية منها والمعاصرة، ويعود تفسير هذه النظرة إلى جملة اعتبارات اجتماعية واقتصادية وثقافية وحتى دينية، ويذهب البعض إلى تفسير التمايز في أطر ذهنية تتعلق بالشرف والعرض، وبأنها كائن سلبي قد يُعتدى عليها جنسيًا، وليس لها قوة الدفاع عن نفسها لهذا تشعر بمدى حاجتها لرجل مساعد. . وهذا ما عزز من اعتبارات الرجل كرجل متفوق أمام إنسان ضعيف. إلا أن مثل هذه النظرة نحو الأدوار الجنسانية التقليدية أخذ يقابلها اليوم حالات متطرفة من الأدوار غير التقليدية وفق البيان المقارن التالي:

obeikandl.com

الحالات التقليدية.	الحالات غير التقليدية.
يعرف الرجال بقوتهم العضلية، وقدرتهم على استخدام القوة المادية من أجل الأفضلية الاقتصادية، أما النساء فلا يظهرن القوة الصرفة إذا كن يردن أن يحبهن الناس ويتقبلهن.	إن الرجل المنهك في العمل الذهني يمكن أن يصبح رجلًا نموذجيًا في مجتمع تحظى فيه القوة الذهنية بمكانة أعلى من قوة العضلات في مجال النجاح الاقتصادي، بينما المطلوب نساء قويات، ذات عضلات وهذا ما يدفعهن نحو أندية رياضية بهدف اللياقة الجسدية. .
الرجال يكسبون الرزق، والنساء في البيت يعتنين بالعائلة.	أصبحت النساء الآن العائل المشارك وربما الوحيد في أسرهن، فأرباب البيوت من الرجال في تزايد مطرد بسبب سوء حركة العمل الخاص به.
الرجال وقحون وعدوانيون ويميلون إلى التنافس وواثقون بأنفسهم، أما النساء فخجولات ومتحفظات.	أصبح لدى بعض النساء نوعًا من الصفاقة مثل الرجال، والجرائم العنيفة التي ترتكبها النساء آخذة في التصاعد، لدرجة بات يتحدثون عن العنف ضد الرجل من المرأة.
الرجال مروضو جياد، والأفضل منهم من يمتلك القدرة على قيادة ماكينة عصره: الفرس/ السيارة/ الحاسوب.	أصبحت النساء على شيء من المهارة بمضاهاة الرجل في استخدام السيارة والحاسوب بل تفوقهم بالاختراع وحسن الأداء.
الرجال هم من يحددون الإنجاب، ويتحدد قدرهم بمدى فحولتهم.	كشفت البحوث الهرمونية أن الرجال مثل النساء لديهم الأستروجين، وسن يأس، وانخفاض في نسبة التستوستيرون، والتقنيات الجديدة التفت على الجماع الطبيعي وعالجت انخفاض عدد الحيوانات المنوية والبويضات عن طريق الاستنساخ. . مما قد يستغني عن الرجال كلية (بنوك الحيوانات المنوية على شاكلة بنك الدم / وبنك العيون).
تسعى النساء للتزين لأن المظهر الحسن مفتاح القبول الاجتماعي والنجاح في العمل.	يسعى الرجال إلى المظهر والحفاظ على الشباب بالقدر نفسه كما عند الفتيات، لهذا نشطت لديهم وسائل الماكياج والعطور والأقراط وجراحة التجميل.
كان الرجال من يقوم بأعمال الإصلاح والصيانة المنزلية والاهتمام بالجنائن.	توسع اهتمام المرأة في أعمال المنزل نحو الطلاء/ السباكة/ الإصلاحات الكهربائية/ وجز الأعشاب/ والاهتمام بالتغييرات المنزلية.
كان في السابق الحديث عن العلاقات الجنسية وعدم القدرة على الإنجاب نوعًا من المحرمات.	الاعتراف بدور الفياجرا وغيره من الأدوية يمثل نوعًا من التساهل مع المحرمات فيما يتعلق بالفعالية الجنسية.

رغم التقدم الذي حققته المرأة في ميادين كثيرة وبدرجات متفاوتة في

أكثر بلدان العالم، فإن الاختلافات الجنوسية ما زالت الأساس الذي يقوم عليه التفاوت الاجتماعي، وأصبح هذا التفاوت من الموضوعات المثيرة للجدل في الدراسات الاجتماعية وطرحت حوله تحليلات عديدة لتفسير هيمنة الرجال المستمرة على النساء في مختلف الميادين الاقتصادية والسياسية والقضائية وحتى الأمور العائلية.

2) التمييز الطبقي:

عندما يتميز مجموعة من الناس عن غيرهم وفق عوامل مثل الدخل/ الحسب والنسب/ الوراثة السياسية، فغالبًا ما يتم توصيف ذلك ب «اختلاف المستوى»، وبعدما كان معيار الثروة أو طبيعة المهنة ونوعيتها من أبرز محددات المستوى المختلف، أصبح هذا المفهوم أكثر بروزًا وتنوعًا مع مستويات أخرى هي:

1 . **مستوى الاستهلاك**: الذي يعكس مدى الوفرة المادية، فالفقير لا يعرف الادخار ولا يستطيع أن يشتري كل ما يحتاجه نظرًا لدخله المتدني أو انعدامه، بينما تساهم الأجور العالية لدى فئات الدخل الأعلى بحبوحة مالية تتجلى معها ظواهر استهلاك تفاخري ونمط حياة مرفّه في المقنيات وطرق التصرف.

2 . **مستوى العمل**: في مجتمع الأعمال كثيرًا ما تقاس مكانة الأفراد باستقلالية المنصب الذي يشغله أحدهم: هل يعمل لحسابه أم لحساب أحدهم؟ هل هو سيد عمله أم شريك مع آخر؟ هل هو صاحب حرفة أم عامل؟ إذ حين يعمل الفرد لغيره أو تحت إشراف آخرين تتضح مكانته، ومن يعتمد على «مهنة» يعني ذلك علو مكانة (مثال الطبيب الجميع بحاجة إليه لذا يعتبر ذو مكانة.).

3 . **البيئة العائلية**: لا زالت بعض المجتمعات تؤكد على أهمية دور العائلة في تحديد مكانة الأفراد في وسطهم الاجتماعي، فخلفية التنشئة والإرث العائلي، كثيرًا ما يلعب دوره في تحديد فئات مجتمع عن آخرين. فمنها انتقلت فكرة النسب من جيل إلى جيل عبر مفهوم «الوجاهة».

4 . **المستوى التعليمي**: رغم أن التشريعات الحديثة كرست أحقية التعليم وجعله متاحًا أمام كل إنسان للوصول إلى تعليم عالٍ، إلا أن مثل هذا الوصول تحكمه قدرات مالية ومعرفية، فأبناء الطبقات الدنيا ليس بمقدروهم نيل الدراسات العليا لمتطلباتها المرهقة، مما يدفعهم إلى الاكتفاء بالمستوى الذي لديهم والعمل بمجالات أخرى قد تكون بعيدة عن اختصاصهم وهذا ما يساهم في بروز طبقية في مجالات الوظائف والحياة. وتبعًا لمؤشر التعليم حدث تشطير اجتماعي في السلم الوظيفي والعلمي حيث هناك فئات تمكنت من ارتقاء السلم الإداري والمهني بفعل مؤهلات علمية، لتموضع نفسها في مكانة مرموقة ومستويات اجتماعية أفضل ممن ليس لديها مؤهلات، كما هو الحال مع الأطباء المختصين والمحامين البارعين والمهندسين المبدعين ورجال الأعمال الكبار.

وأهم ما توصف به العلاقات بين الطبقات بأنها علاقات تناقض بسبب التفاوت في مواقع الطبقات داخل البنية الاقتصادية وعدم المساواة في الملكية، ومن شأن هذا التفاوت في المواقع الطبقية أن يُمنح البعض على حساب البعض الآخر قوة اقتصادية تتحول بدورها إلى قوة اجتماعية ونفسية وسياسية. وفي سبيل مزيد من التحديد تتصف التناقضات الرئيسة القائمة بين الطبقات بأنها:

* **علاقة استغلال**، وهو استغلال يتمثل في احتكار الثروة والجاه والنفوذ من قبل الموسرون المترفون لموارد المجتمع وثراوته، إزاء جماعة كادحة تعاني من الحرمان، تعاني ليس من السكن والصحة بل في الكرامة.

* **علاقة سلطة**، تقوم على القهر والإذلال والقمع والكبت في شتى نواحي الحياة، إنه تسلط شامل يتمثل في علاقة الحاكم بالمحكوم، المدير بالموظفين، السيد بخادمه .

* **علاقة اغتراب**، حيث يشعر العاملون بحالة اغتراب عن ذاتهم، لأنهم عاجزون عن اتخاذ قرار، كما أنهم لا يشعرون بالرضى والاكتفاء الذاتي بل هم مجرد سلعة تبيع قوة ساعدها ويتم تبادلها في السوق.

* **علاقة عداء**، تقوم على الحسد والكره والنفاق والتعالي والتحقير من قبل حديثي النعمة الجاهلة لأصول اللياقات ودون نسب رفيع إزاء كادحين، لآخرين لا يتسنى لهم فرص العمل. ويتمثل مثل هذا العداء في ندرة الزواج بين الطبقات وعدم الاختلاط.

تُفهم الطبقة على أنها رتبة أو منزلة خاصة تختص بها فئة معينة من الناس لامتيازهم بمقومات مادية أو غير مادية، وتتضح معالم هذه الفئة عندما تقارن مع أفراد المجتمع الذين لا يملكون إلا النزر اليسير بالنسبة لهم، وبناءً على معيار امتلاك الثروة وعامل النفوذ المالي والإمكانات السياسية يتم تصنيف الناس في تراتب اجتماعي ومستويات طبقية، مقدارالدخل ـ كمؤشر تصنيف ـ يظهر بوضوح الفروقات الحاصلة بين الفئات الاجتماعية، فالطبقة الثرية أو المرتفعة الدخل جدًا تبدو في أسلوب حياتها راقية ونخبوية، تظهر عليها ملامح الثراء الفاحش بما تمتلك وبما تتصرف، في حين تبدو في الجهة المقابلة شريحة من الناس معدومة الإمكانيات والدخل لا تستطيع تأمين أبسط احتياجاتها حيث هي في أسفل الهرم الاجتماعي كطبقة وضيعة من المعوزين والمشردين والمتعطلين عن العمل. بين هاتين الطبقتين هناك الفئة المتوسطة التي تضم أساتذة المدارس/ الممرضات/ الحرفيين/ مديرو المشاريع الصغيرة/ الموظفون الرسميون. ميزة هؤلاء أن لديهم تحصيل جامعي يؤهلهم لعب دور إنتاجي معقول يجعلهم يعيشون حياتهم في كفاف. ثم هناك الطبقة العاملة التي تبيع قوة ساعدها ومهاراتها مقابل خدمات ورواتب ليست بالمغرية.

3) التمييز الطائفي

الطائفة تعريفًا، جماعة منظمة من الناس يمارسون معتقدًا دينيًا بطرق وطقوس مختلفة عن غيرها من الجماعات، إنها تشير إلى تنظيم اجتماعي له مؤسساته وأوقافه وشعاراته وعاداته، وتختلف في مفهومها عن الدّين الذي يشير في الأساس إلى العقيدة والمبادئ والتعاليم السماوية، بينما الطائفة كيان اجتماعي مغاير في الممارسة للعقائد والشعائر والتنظيم الداخلي، وبحسب

التنظيم الطائفي يتوزّع المسلمون بين سُنّة وشيعة وإسماعيلية ودرزية وعلوية وزيدية وأباضية، مع أن كلهم كدين مسلمون، وكذلك يمكن القول عن الطائفة المسيحية هناك: كاثوليك، شرقيون، لاتين، سريان، كلدان، أرمن، آشوريين، واليهود كذلك فرق ومنهم: الفريسّيون، الصدوقيون، القراؤون، الآسينوين، وغيرهم. .على هذا تتميز دول العالم اليوم بتركيبة اجتماعية متعددة الأثنيات، وقد تكون هناك أسباب تاريخية لهذا التعدد والتنوع أبرزها الهجرة: (كما هو الحال في الدول الأمريكية والأوروبية) أو قد يكون بسبب السياسات الاستعمارية التي مارستها الدول الأوروبية على أراضٍ وشعوب أخرى في آسيا وأفريقيا خلال العقود الماضية.

ترتكز النظريات التمييزية على تصوير الناس والمجتمع وفق عالم من الأضداد المتعارضة والثنائيات المتصارعة: أبيض/ أسود، ذكر/ أنثى. .مسيحي/مسلم وفي الأخيرة التمييز الطائفي، وكأنه اختلاف بفعل الطبيعة والبيولوجيا بينما هو اختلاف محض بشري، صنعه التفوق الحضاري والمصالح الاقتصادية، وكي يتكرس هذا الاختلاف الإثني أخذت التربية التمييزية برسم أشكال ومواصفات تسم الأنا الفاضلة عن الآخر الطائفي الدوني في عملية تمايز تعرف «بالتربية العنصرية»، تنطلق الطائفية كالعنصرية من عنصر الاختلاف في الانتماء لتضيف إليها تصنيفًا يوقع الناس في فخ المقارنة للتفضيل بين فئة أرقى = فوق، وفئة أدنى= تحت، مشيرة إلى وجود نوع بشري راقٍ وآخر أقل قيمة وشأنًا وبهذا التصنيف يتأسس التمييز وعدم المساواة في المجتمع ويأخذ الصراع المبني على الطائفة وجه النفور والتوجس والخوف من الآخر المختلف[1].

وفي هذا السياق ترى الباحثة (أوغاريت يونان) في كتاب لها بعنوان «كيف نتربى على الطائفية»، أن مسألة التقارب أو النفور ترتبط بمصدرين

(1) يذكر أن هناك عشرات الدول التي يتواجد فيها الطوائف المتعددة سواء بنسبة 1% إلى 99%، إلا أنه ثمة دولًا تتواجد فيها الطوائف بشكل مناصف50% ـ أي نصف إسلامية ونصف مسيحية ـ كلبنان وأثيوبيا وتشاد ونيجيريا، (وتسمى بدول الثنائية الدينية أو ميزان الرعب الطائفي).

أساسيين وهما التربية النفسية ـ السلوكية والمصالح الاقتصادية المرتبطة بجماعة ما لتؤسس إما تناغمًا وتكاملًا (على مستوى السلوك) وإما تنافرًا وعدائية وتمييز وهيمنة (على مستوى الحقوق)، إن الأثر الأكبر للتمايز الطائفي يأتي من سعيه الدائم إلى برمجة حياة الناس بشكل مغاير عن أي انتماء لآخر، فيُصبح التعلّق بالرمز والرموز (سواء كان إنسانًا أو صورة أو عيدًا أو ثوبًا ..) له قدسيته وعبوديته والدليل على الهوية، ويتكرس الأمر فعليًا في مؤسسات علم ورياضة و تربية وفنون وكشافة وجمعيات ومساعدات خيرية وتوظيف ووسائل إعلام.. حيث تقفل الدائرة على لون واحد وفئة معينة.

4) التمييز العرقي

يقصد بالعرق جماعات بشرية تتميز عن غيرها بسمات شكلية ظاهرة من شأنها أن تجعلهم مغايرون اجتماعيًا عن غيرهم من بني البشر، حيث هناك البيض/ الأفارقة/ الآسيويون/ الصينيون.. جميعهم يعتبرون أنفسهم من عرق مختلف عن الآخر، في معظم المجتمعات هناك من ينتمي إلى الجنس الأبيض وذاك إلى الأسود وآخر إلى الأصفر، وذلك بناءً على تمايزات شكلية في طبيعة أجسامهم أو لون بشرتهم أو انحراف عيونهم، ويصنّف الغربيون مثلًا: الأفارقة من العرق الأسود/ اليابانيون من العرق الأصفر/ الآسيويون من العرق الأسمر/ والأوروبيون من العرق الأبيض..) ورغم أن كثير من الناس تأخذ بهذا التصنيف إلا أن ما ينبغي الإشارة إليه ـ ومع اختلاط الأجيال من كافة الأعراق ـ لا يوجد هناك عرق صاف مائة بالمئة، وإن ذكرت الألوان كمحدد بين شعب وآخر فهي على سبيل الوصف، لأنه تبين علميًا من الدراسات البيولوجية أن جميع الناس متشابهين في تكوينهم البيولوجي، وأن الدم الذي يجري في عروقهم لونه واحد. حتى فرضية أن هناك أعراقًا أكثر ذكاءً وتحضرًا من الأخرى بحاجة إلى أدلة علمية، والقول بأن العرق الأبيض أكثر نشاطًا وتهذيبًا وحيوية، لايمكن الأخذ به من وجهة النظر الإنسانية والعملية، وإذا كان بعض الفلاسفة الغربيين يحاولون اللعب على مسألة الاستعدادات والإمكانيات القادرة فإنه لا يمكن الركون إليها بشكل قاطع، فكل الأعراق لديها معطيات حضارية وهذا لا يعني بالضرورة أنها متخلّفة عن الركب

الحضاري أو أقل مهارة في التهيؤ الاجتماعي. وما طرحها والتداول بها سوى لأسباب محض سياسية، تريد أن تبرر فرضية تفوق العرق الأبيض في الإدارة والحكم.

في كثير الأحيان يظهر التمييز العرقي من خلال استضعاف الأقليات عبر مواقف اللامساواة ضدها على المستويات الفردية والاجتماعية لتصل في بعض الأحيان إلى المستوى المؤسسي المتمثل بتطبيق القوانين أو مزاولة الأنشطة السياسية والمهنية، وتشير الباحثة الأمريكية (أليجا أندرسون) بأن التمايز العرقي يبرز أوجّه بين البيض والسود ومما تذكره في مجال «لقاء العيون» بينهما:

- ✓ **إن البيض يقلقون من وجود ذوي الأعراق الأخرى بينهم (وخاصة السود لهذا لا يطيلون النظر إليهم).**
- ✓ **إن السود يشعرون بقلة الاكتراث والتقدير من البيض ويتجلى ذلك بشكل ملحوظ من نظراتهم العابرة (كأن يحدجه من طرف عينه بمغزى يقول: أخذت علمًا بوجودك وهذا يكفي).**
- ✓ **بعض السود يستغربون عندما يطيل شخص أبيض النظر إليهم، هذا الاستغراب مرده إلى ما هو شائع عن البيض من لامبالاة بهم وعدم اكتراث لهم. (يطيل النظر يعني في الأمر شيء؟).**
- ✓ **لا ينسرُّ الأبيض كثيرًا من وجود رجل أسود في محيطه القريب فيبادر إلى العبوس أو تقطيب الجبين كدلالة عدم رضى[1].**

لعل ما ورد أعلاه يعتبر واحدًا من أكثر المفاهيم المتداولة في علم

(1) والحال ليس بأفضل في بلد كلبنان، فقد ذكرت صحيفة حبر اللبنانية في عددها الصادر بتاريخ آب 2010 تحقيقًا بعنوان: «مسابح التمييز العنصري»، كيف أنه ممنوع في معظم المسابح اللبنانية أن تترك المساعدة المنزلية ذات البشرة الداكنة (السريلنكية/ الأثيوبية..) النزول إلى المسابح. بل يقفن على الحافة جاهدات في مساعدة الأولاد... ولدى الاستفسار عن ذلك أفاد أحد مسؤولي المسابح: «وضعت هذه القوانين بسبب انزعاج اللبنانيين من نزول الخادمات إلى البيسين».

اجتماع الحياة اليومية حول العرق، فالدراسات ومنذ عقدين من الزمن تدأب على تصنيف الشعوب في أعراق وأقليات، وقد وصل الأمر بعدد الباحثين إلى تصنيف الشعوب في ثلاث مستويات أو أعراق: الأبيض (القوقازي) والأسود (الزنجي) الأصفر (المنغولي). وذهبت بعض الكتابات إلى اعتبار العرق الأبيض يتصف بصفات متفوقة من حيث الذكاء والسمو الأخلاقي والإرادة وهذه الصفات الإرثية هي التي أدت إلى بسط المجتمعات الغربية سيطرتها على العالم، وهي التي عززت حركة (أدولف هتلر) النازية العنصرية والعرقية باعتباره العرق الجرماني أسمى الأعراق وما دون هذا العرق يقتربون من المرتبة الحيوانية في افتقارهم للقيم الأخلاقية والأسلوب الحضاري. على النقيض من ذلك فإن باحثون معاصرون بات لهم توجه آخر عند الحديث عن التمييز العرقي حيث لم يتوقفوا عند اعتبار الشكل الفيزيولوجي مؤشرًا أساسيًا للتمييز، إنما ذهبوا بعيدًا في الإشارة إلى اختلاف في الثقافات والعادات والتقاليد وتدبير شؤون الحياة، كيف يختلف كل عرق عمّن سواه؟ هذا يفضي إلى أن التمييز العرقي لا يعني بالضرورة اختلاف لون البشرة، شكل العيون، حجم الأنف، قصر القامة أو امتشاقها[1].

وإنما الاختلاف هو في القيمة الاجتماعية المعطاة لهم: كيف هم كأفراد جماعة بالمعنى الاجتماعي؟ بعض خبراء التفاعل الاجتماعي يتحدثون اليوم عما يعرف ب: «تعريف الموقف»، أي أصبح هناك نظرة عامة تدفع الناس لأن يتفاعلون ليس بناءً على الملامح الشكلية للفرد وإنما بناءً على الموقف الاجتماعي فيما بينهم. وهذا ما يجعل كثير من الأفكار المنمطة تتهاوى أمام التفاعل البشري المباشر والحكم على الناس المنتمين إلى أعراق مختلفة :ماذا يعملون؟ كم هم إنسانيون وليس لأنهم ملونون..؟.

(1) خاصة وأن في سلالة كل عرق بات هناك تداخل، إذ في بلد كالبرازيل مثلًا هناك أكثر من 40 لون متواتر من أعراق متنوعة، وفي دول أخرى باتوا يتحدثون عن صنف عرقي جديد تحت عنوان متعددو الهوية (MULTIPLE IDENTITIES) مثل: / mistzo hondurans mulatto colombiano/ African panamaians.

* التحيز

بماذا يختلف مفهوم التحيز عن التمييز؟

في اللغة يعني التحيز :bias الانحياز إلى جانب نظرية أو فرضية أو تفسير معين أو الوقوف ضدها مما يؤثر بصورة غير واعية في الحكم الذي يصدر عن الفرد، أنه اتخاذ موقف يصدر عن هوى في النفس ويستبق التحقق من صحة الشيء والتدقيق في ملابساته. أما المعنى السيكولوجي لهذا المفهوم فهو «شيء من التحامل وموقف عدائي يتسم غالبًا بصبغة انفعالية عاطفية أو موقف تحيذي من أفعال وأشياء تنتمي إلى نوع معين أو من بعض الأشخاص والعقائد والمذاهب».

في معجم علم الاجتماع يشير هذا التعبير على التجنب avoidance، الذي يعني نوع من أنواع السلوك يتسم غالبًا بطابع السلبية وعدم التعاون، وفي مواضع أخرى يؤشر بمفهومه إلى: التباعد «النفسي» الذي يمارسه أفراد وجماعات تجاه بعضهم البعض سيما إذا كانوا في مكان واحد أو مناطق سكنية متقاربة أو في مؤسسات عمل مشتركة، وهذا ما بحثه رواد علم النفس الاجتماعي ضمن دراسات المسافة الاجتماعية، ومدى أهمية الفرد للآخرين كي يشاركهم الدراسة أو العمل أو الزيارات وغير ذلك من مختلف الأنشطة، كما تَعنى ببحث الاختيارات المتبادلة في جماعات الأقران بناء على قياس مشاعر الحب والكراهية بين الأشخاص ونوع الصداقات القائمة ودرجة الشعبية ومدى التقبل الاجتماعي وعوامل الجذب والنفور والانجذاب والتحيز مقابل الابتعاد والنبذ ومن الأمثلة تذكر هنا المحاولة التي قام بها (بوجادرس) التي أراد من خلالها التعرف على مدى تقبل الأمريكي أو نفوره من أبناء القوميات الأخرى، (أي مدى درجة انحياز الأمريكيين نحو بعضهم البعض ومدى

ابتعادهم عن أبناء الشعوب الأخرى)، فوجد بعد تطبيقات عديدة لتقنية بحث استطلاعية على عينة من 1725 أميركيًا، أن الأميريكين يُظهرون نوعًا من التباعد تجاه الأتراك في حين يبدون نوعًا من التقارب (الانحياز) تجاه السويديين.

الأنوية الثقافية:

في مواقف الحياة اليومية يتواجه الناس باختلافات ثقافية أو دينية أو مناطقية ويسارع بعضهم إلى وصف من يختلفون عنهم بأنهم غير حضاريين/ بدائيون/ جاهلون للحياة المدنية/ غير مدركين للتطور، ويصبح ما يعتقده هؤلاء ـ النحن ـ بأنهم «الأفضل والأصح» وما يعتقده الآخرون ـ الهُم ـ خزعبلات وترهات، مثل هذه النظرة هو ما يصطلح على تسميتها بالأنوية الثقافية والتي تعني:

☆ أن كل شعب يعتقد بأنه هو الأفضل ثقافةً والأرقى حياةً إزاء الآخر الموجود في العالم، ويعود مثل هذا الاعتقاد إلى الموروث الديني الذي عزّز الفوقية، فاليهود يعتبرون أنفسهم «شعب الله المختار على الأرض»، بل إن أرواحهم جزء من الله، فإذا ضرب غير إسرائيلي (جوييم) إسرائيليًا فكأنما ضرب العزة الإلٰهية. وأن الفرق بين درجة الإنسان والحيوان هو بمقدار الفرق بين اليهودي وغير اليهودي، والمسيحيون بنظر أنفسهم هم نور العالم حيث قال لهم نبيهم: «اذهبوا وتلمذوا جميع الأمم وعمّدوهم باسم الأب والابن والروح القدس» (إنجيل متى: 28-16) أما المسلمين فيعتبرون أنفسهم بأنهم الأمة الخيّرة التي قال عنها القرآن الكريم: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ [سورة آل عمران، الآية: 110].

☆ تعني تلك الهوة النفسية القائمة بين جماعتين، وبأن كل جماعة تمارس في نظر ذاتها الحضارة وبأنهم هي «الواقع» و«الممكن» و«المعقول»، أما الآخرين فهم خارج نطاق المعقول والزمن أيضًا، كتلك المفارقة القائمة في النظرة إلى الزواج من الأقارب، ففي الوقت الذي يحافظ عليه العربي ويشدد على أهمية الزواج من ابنة العم أو الخال مثلًا، يراها الغربي نوعًا من سفاح القربى وينكره.

☆ تعني أن النظرة نحو الآخرين المختلفين تتعزز دراماتيكيًا من خلال وقائع وأحداث وقضايا اجتماعية غريبة يقوم بها الآخرون بينما النحن لا يمكن أن يفعلها لأنها «غير مستحبة» و«غير لائقة» أو لأنها مجرمة بحق الإنسانية والحضارة، وذلك وفق مقولة: «لا أفعل ذلك أبدًا، وإن حدث لا أفعله بالشكل الفظيع الذي يفعلونه» والمثال على ذلك ما يروّجه الإعلام الغربي دائمًا بأن من يفعل الجرائم في بلادهم ليسوا المواطنون وإنما الغرباء ـ الوافدون من أبناء الأقليات الأخرى المعروف بحبهم للعنف والدم.

مثل هذه الأفكار المنمطة في تقييم الآخر من منطق تفوّقي وأفضلي قد يؤدي برأي بعض الباحثين إلى شيء من التحامل وسوء الفهم والتباعد الاجتماعي والنفور. وهناك مقاربتان نظريتان تحاول أن تفسر الأسباب التي تدفع إلى الانحياز وفهم التوجهات المتحيزة، المقاربة الأولى: ترى بأن التحيز ينطلق من الأفكار المنمطة، أي من أسباغ خصائص ثابتة ومتصلة على جماعة بشرية معينة قوامها مشاعر العداء والفوقية وإلقاء اللوم عليهم في كل فعل اجتماعي غير مستحب، وقد يلجأ أفراد و جماعات إلى نعت الآخر و التصرف معه أو الحكم عليه من خلال أقوال ذهنية جاهزة دون أن يكون لذلك أيّة منطقية. أما المقاربة الثانية فترى أن هناك جماعات تتحكم فيها اعتبارات تنشئتهم الاجتماعية المبكرة حتى تجعلهم ميّالين أكثر إلى التفكير الانفعالي الذي يتمثل في إسقاط نوازع الفرد و رغباته أو فورات مزاجه ولحظات غضبه على الآخرين . . من هنا تتبدّى ملامح التحيز التعصبية في الاتجاهات التالية:

1 . **اتجاهات تحيّز قومية**، ومضمونها حب الوطن والغيرة عليه، والشعور بالانتماء والثقة بمنتوجاته، وبمهارة أبنائه وإبداعاتهم، وإبداء الكراهية لمن يعاديه أو يستخف به أو يهاجمه، وقد يصل إلى حد رفض زواج أبناء بلد من قومية أخرى أو رفض شراء بضائع مستوردة.

2 . **اتجاهات تحيز دينية**، أي التعاطف مع الأشخاص الذين يدينون بالدين نفسه، تقديم المساعدة، إقامة صداقة معهم أو المصاهرة منهم، والتحمس

لمناصرته والدفاع عنه.

2 . **اتجاهات تحيز اجتماعي**، حين تقتصر التعاملات الاجتماعية على الأشخاص الذين يتماثلون في المستوى المادي، وعدم الارتياح لإقامة أي نوع من العلاقات مع الذين يتباينون في هذا المستوى، كما يظهر في عدم الرغبة بالذهاب إلى أماكن «تعتبر شعبية» أو وضع أبنائهم في مدارس أدنى مستوىً مع أبناء مناطق فقيرة وعائلات دنيا.

4 . **اتجاهات تحيز سياسي**، يدور مضمونه حول تبني فكر سياسي واحد، والاستماتة في الدفاع عنه، ومحاججة الآخرين بشتى الطرق الممكنة في صوابية ما يقوم به، الإيمان بأنه الوحيد الصحيح والهادف، والغيظ الشديد وعدم الارتياح من جوانب نقد تثار ضد الأفكار التي يعتنقها الشخص، وعدم الارتياح للوسائل الإعلامية التي تحاول نشر إشاعات ضدهم.

5 . **اتجاهات تحيز رياضي**، وهو الميل لتشجيع الفرق الرياضية لنادٍ معين دون سواه، والاعتقاد بأنه أفضل من سائر الأندية، والشعور بالسعادة عند مشاهدة مبارياته والشعور بالحزن والضيق عند الهزيمة، والاستمرار بالتشجيع رغم الهزائم، وتفضيل الصداقات مع الأشخاص الذين يشجعون النادي نفسه، وقد يتطور إلى حدوث إشكالات وتوترات بين مناصرين نتيجة ارتفاع حدة الاستفزازات.

6 . **اتجاهات تحيز ثقافي**، ومحورها أن الثقافات تتباين في الغنى المعرفي والقيم والأخلاق ومدى إفاداتها لمعطيات العصر، وأيها يمكن أن تكون المجال للتخصص والتعلم ولمواصلة الدراسة، وهذا ما يحدث بين الثقافات الإنكليزية، والفرنسية، والعربية.

7 . **اتجاهات تحيز حضارية**، سواء من قبل المحافظين تجاه الحضارة الغربية حيث يعتبرونها بمثابة السرطان الذي يفتك بالعادات والتقاليد، وإن مجمل مشاكل الجيل الجديد في المفاسد تتأتى من ورائها ومن عدم تمسكهم بالتراث. . . أو سواء من قبل التحررين، الذين يقولون بأهمية التجديد والتقدم والتخلص من التقاليد البالية في الفكر والملبس والسلوك. .

والمناداة بالتحرر في شتى الأمور.

* الأصولية والتعصب:

استخدم لفظ الأصولية كترجمة حرفية للتعبير الأجنبي FUNDAMENTALISM للدلالة على الدعوة في العودة إلى أصول الدين الأولى. يعني هذا اللفظ في اشتقاقه اللغوي: معاني التأسيس والتأصيل والقاعدة والجوهر والحقيقة، وفي دلالاتها معاني الرجوع إلى الأصل وقواعده والتمسك بحقيقته اعتقادًا وممارسةً، بداية هذا المصطلح تاريخيًا انطلق من حركة بروتستانتية أمريكية أطلقت على نفسها ذات الاسم، عندما أخذت في الثلاثينات من القرن الماضي تؤكد على أساسيات الدين المسيحي المتمثل في التطبيق الحرفي لنصوص الإنجيل والعصمة عن الخطأ وعودة المسيح الوشيكة والغفران، وإنجاب السيدة العذراء للمسيح والفداء والقيامة ومعجزات المسيح كأساس للعقيدة المسيحية. وما زال معظم الأصوليين من هذه الحركة يمتنعون عن التدخين وشرب الخمرة والرقص ومشاهدة الأفلام مع حضور الصلوات والأناشيد الدينية كالتزام بالأصوليات.

كذلك الحال في الإسلام ترافق المصطلح مع بروز جماعات تدعو إلى ممارسة معالم الدين الإسلامي كما هي، وفي الوقت الذي يسميها أصحابها بالصحوة، أي حركة تصحيحية تدعو إلى العودة لأصول الدين الإسلامي والسير على خطى السلف الصالح الذي طبّق العقيدة بتمامها في السلوك والحياة، شنّ الإعلام الغربي ـ ولا يزال ـ حملة على هذه الدعوة الإسلامية مُسبغًا عليها صفة الأصولية التي حوّلها إلى مسألة تطرّف وتعنّت وظلامية وصولًا إلى اعتبارها إرهاب منظم.

تتوافق ـ إذن ـ الجماعات الدينية إلى حد بعيد حول مكونات الثقافة الأصولية، فالأصولية البروتستانتية (الأمريكية) والكاثوليكية (الأوروبية) تنادي بالتمسك بأساسيات الدين المسيحي والعودة إلى الأصول النقية بالابتعاد عن مظاهر الانحلال الاجتماعي والموقف المتزمت من الذات ورغباتها، وبالمثل الحركة الإسلامية التي نادت بالعودة إلى الفطرة والخضوع للإرادة الإلٰهية

وصدارة الإيمان على العقل والحجة وإقامة دولة حكم الله (للخروج من وضعية الكفر) والتمسك بالمرجعية النقية أيام الرسول وإلغاء ما بعدهم، توحيد المسلمين تحت راية القرآن ويحتم ذلك على المسلمين أخذ قيادة العلم والسياسة من غير المسلمين (استعادة المرجعية المفقودة) وهكذا تتلاقى الأصوليات الثلاث ـ البروتستانتية والكاثوليكية والإسلامية ـ في وضعية الدعوة إلى الحالة الماضية المثالية (الفردوس المفقود يجب استعادته) في مقابل رفض آفات الحاضر وفساده والتمسك بسلوك متشدد مع الذات يصل إلى حد التزمت في التعاليم والشعائر وتطبيقها. تبدو الأصولية (وبتعبير مرادف التمامية integrism كما يطلقها الغرب على الحركات الإسلامية بمعناه المتعنّت في تصلبه ورجعيته وجموده) في اختلاف مفاهيمها الدينية واحدة التوجه لجهة:

- ✓ فساد الحاضر وضياع إنسانه.
- ✓ ضرورة العودة إلى حالة النقاء السلفية كطريق وحيد للخلاص.
- ✓ تلمّس الضوء المرشد إلى الطريق الصحيح بعد تخبّطه في لُجّة الضلال.
- ✓ استلهام الصحوة من الثبات والعودة إلى الحركة بعد السكون.
- ✓ ادعاء الحل الوحيد لمشكلات الكون.

إلا أن العودة إلى هذه الحالة ينزلق نحو الدخول في صراع مفتوح مع الآخر الذي يرفض الاعتراف بحقه في الاختلاف والمغايرة مما يفتح السبيل أمام احتمالات العنف، وقد تتدرّج حالة الصراع مع الآخر: ما بين مجرد عودة إلى الأصول بحثًا عن معنى روحي أو ما ورائي للوجود وبين فرض الجماعة لذاتها في حالة رفض الآخر لها وهذا ما أدى إلى حالات التعصب.

*** ما العلاقة القائمة بين الأصولية والعصبية والتعصب؟.**

العصبية هي غريزة التجمع والتعصب له والميل إلى القطيعة في الانتماء وإلغاء المغاير المخالف، حيث الفرد كل الجماعة في نوع من ذوبان الذات في النحن. تقوم العصبية في الأساس على النسب والقربى ومن هنا فإن أعضاء العُصبة هم إخوة في رابطة الدم وفي حالة الأيديولوجيات تتحول الأخوّة من رابطة القربى إلى رابطة الأخوّة العرقية أو الدينية أو القومية. .من هنا تتخذ

العصبية شكل «النحن العصبي» المتمثل في التناصر والتعاضد والالتحام وصولًا إلى حالة الدفاع عند المواجهة.

أما التعصب فيشير إلى آلية الغلو والقطيعة التي تذهب إلى حد الشطط في ادعاء الحق والكمال للذات في مقابل استنكار ما يكون غير ذلك، والتصدي للضد بالقوة وصولًا إلى إخضاع الآخر في الرأي وإنكار وجوده، أنه ـ إذا كان فرديًا ـ التشنّج المفرط في الموقف والسلوك على نحو ما تفسره أبحاث علم النفس، كما أنه ـ إذا كان جماعيًا ـ الانتماء إلى جماعة والتوحّد بها بحيث تصبح مرجعية تحديد الهوية والوجود لكل من الداخل (النحن) مقابل الخارج (الآخر) حتى يصبح هناك انشطار انفعالي واضح ((split-off) ويُقصد به في لغة التحليل النفسي ذلك الفصل القاطع بين نزوة الحب ونزوة الكره، فيُوجّه الحب إلى موضوع/موقف/جماعة، ليصبح في مرتبة المثال وهو ما يكون عليه الأنا في الغالب، أما الآخر فهو نموذجًا للرذيلة ومجسّدًا للشر. لهذا تبين الدراسات الاجتماعية تواتر الميل التعصبي عند البيض ضد ما يُعتبر غريبًا عنهم سواءً على مستوى العرق (هناك السود) أو سواءً على مستوى الجنسية (هناك العرب) أو سواءً على مستوى العقيدة (هناك الشيوعيون) كما ينصب الميل التعصبي ضد من يعتبر ضالًا عن الجماعة وعن مبادئها (مثليي الجنس).

وبالحديث عن الاتجاهات التعصبيّة أبرزت دراسة ميدانية حديثة[1] (لبنان 2010)، معطيات هامة على صعيد اتجاهات التحيّز المذهبي عند الطلاب الجامعيين في لبنان، فقد توصلت الباحثات إلى معطيات مهمة لجهة وجود تعصب شاسع لدى الطلاب في الجامعات حيث أكد من نسبتهم 54% بأن هناك تعصب فيما بينهم، ويأخذ هذا التعصب أشكالًا منها: الديني (29%) السياسي (40%) الاجتماعي (10%). وقد أظهرت الدراسة أن سبب التعصّب يرده الطلاب إلى رجال الدين (38%) رجال السياسة (33%) وسائل الإعلام (25%).

(1) الاتجاهات الدينية والتعصبية لدى الشباب الجامعي، أطروحة أعدتها: رجوى فيتروني ودعاء غصن وعايدة نصر الله؛ قسم الإشراف الصحي الاجتماعي/كلية الصحة العامة، الجامعة اللبنانية/ زحلة 2010.

ولدى سؤال أفراد العيّنة عن الغايات الأساسية التي يجب أن يولوها درجات الاهتمام أولًا (من الخيارات المدرجة)، جاء مؤشر: «أن يتمسك كلٌ بمعتقداته» بأعلى نسبة (41%) يليه مؤشر: «أن يثبت وجوده كملتزم مهما كلف الأمر» (28%)، ثم «أن يحترم معتقدات الآخرين» بما نسبته (16%) فالانفتاح بأدنى نسبة (10%) وعن إذا كان الطلاب يعتبرون أنفسهم متعصبين طائفيًا أو مذهبيًا أقرّ من نسبتهم 54% بنعم، مقابل 20% بلا، في حين لم يرد من نسبتهم 25% الإجابة.. وتأكدت مثل هذه النسبة للباحثات لدى الاستفسار عن موقفهم فيما لو تعرضوا لاستفزازات حول معتقداتهم الدينية، ليجيب أكثريتهم بأنهم يقومون بردات فعل مباشرة أو بأخرى حسبما يقتضيه الموقف.

* ارتداء الحجاب... إشكالية تحيز أم تمييز؟

«منع المحجبات يثير استنكارًا» هكذا عنونت صحيفة لبنانية لخبر مفاده أن مجموعة طالبات محجبات من كلية جامعية مُنعن من دخول مستشفى حكومي بهدف القيام بالتدريب العملي المطلوب من قبلهن، وقد ورد في البيان الصادر عن تجمع طلابي لمناصرة قضية الطالبات والذي استندت إليه الصحيفة في نقل الخبر «أن ما جرى يدعو للاستغراب والاستنكار ويأتي في سياق نهج عنصري بغيض وقمع لحرية المعتقد والثقافة ومحاولة للسير على خطى ما يجري في فرنسا» (صحيفة النهار / 17/ 4/ 1999) هذا في لبنان.

أما في فرنسا فقد أثارت قضية ارتداء الفتاة المسلمة للحجاب استنكارًا جماعيًا في أوساط الجالية الإسلامية، وذلك بعدما أخذت المدارس تشدد على منع ارتداء الرموز الدينية في المدارس والجامعات مثل الصليب والحجاب، وصل الأمر بالقرار التربوي إلى أن من يرتديه يُطرد، مثل هذا القرار أثار حفيظة المسلمين واعتبروه بمثابة تجنّ ومسّ بمشاعرهم ورموزهم الدينية. إزاء ذلك وجد البرلمان الفرنسي نفسه أمام تحدٍّ في موضوع منعه، فإن أقرّ به يأتي ذلك بمثابة طعنة للتلاقح الحضاري وتنوّع الثقافات التي تنادي به فرنسا، وإن لم يقرّ ويترك الأمر يصبح ذلك بمثابة تكريس للامساواة بين المواطنين كما يقول المعارضون له، سيما وأن 78% من الفرنسيين في

استطلاع للرأي حول الحجاب يدعمون قرار البرلمان في منعه.

ومثلما حدث في فرنسا كذلك الأمر في تركيا فقد أثار ارتداء الطالبات للحجاب في الجامعات جدلًا واسعًا بين مؤيد ومعارض خاصة بعدما عمدت الحكومة إلى منع ارتدائه داخل الحرم الجامعي.

في أمريكا حدد الباحثون ثلاث تصورات للحجاب من خلال استطلاعات رأي عنه (استخدم لفظ حجاب hijab وليس الترجمة الإنكليزية له «VEIL») فتبين أن هناك: فئة من الفتيات المتعلمات تؤيد ارتداءه في الوسط الأمريكي باعتباره يدخل ضمن «الحرية الشخصية»، وهناك فئة من النساء المتقدمات وذات مستوى علمي متوسط لا يرين مشكلة في وجوده، بل يتساءلون لماذا يثير مثل هذه القضية، والفئة الثالثة من نساء في أعمار مختلفة وبمستويات علمية متفاوتة يعارضن مسألة الحجاب ويرفضنه في وسطهن.

إلى ما يعود هذا الجدل في ارتداء الحجاب أو منعه؟ ألأنّه رمز ديني ينمّ عن التزام و ممارسة لمعتقد ديني فرضه القرآن الكريم فيأتي التحامل عليه ضمن الحملة على الإسلام كدين؟ أم لأنه رمز الإسلام التقليدي فينبغي إعادة النظر فيه برأي دعاة التغيير (كما فعل كمال أتاتورك عندما حكم تركيا 1923 فمنعه واستبدله بغطاء رأس آخر)؟ يبدو أن إشكالية ارتداء الحجاب اليوم ليست من مجرد كونه سترًا أو غاية شرعية لناحية التعفف، بل لحالة «التسيّس» التي رافقت هذا الرمز الديني حتى اتخذ بُعد ارتدائه مظاهر ومعانٍ جديدة، كاستعماله للتعبير السياسي والطائفي وحتى المذهبي..(ظاهرة تنوع الأحجبة لدى الفتيات اللبنانيات كلّ مجموعة يؤشر طريقة حجابها إلى الجهة التي تنتمي) فأصبح اللباس الشرعي - وبما فيه الحجاب - من أكثر المجالات إظهارًا للخطابات الاجتماعية ودلالات التمييز، ويكتنز في ارتدائه خيارات عقائدية وسلوكية، فالأبعاد الخطابية للزي متعددة إما أن يكون خطاب استعلاء وتحقير (ما أرتديه أنا.. أثمن مما تريده أنت/ فتاة محجبة تعتبر نفسها أفضل من المتبرجة..) يعتمد التنقيص والتكفير أو خطاب دعوة ووعظ عام، وإما أن يكون مدخل لخيار ديني معين حيث يُفسر باحثي علم النفس

التواصلي الحجاب على أنه «نوع من الانتماء إلى شريحة معينة وإحساس الشخص بأن له هوية دينية، بل ظاهرة تعكس فرضًا على نساء وأطفال لأغراض سياسية».

إزاء تنامي ظاهرة انتشار الحجاب في مختلف الأوساط وتحامل بعض الأنظمة السياسية عليه، يلاحظ أن هناك مبررًا في سر انتشاره يعكس في الأساس قيمة ثقافية أكثر منها دينية، ذلك أن الأنماط الجديدة للحجاب أخذت تتأثر بمفهوم الموضة والعلاقات والشخصيات ومصالح العمل، إذ غالبًا ما تبحث الفتيات المتحجبات عن صورة عصرية لمظهر يعبر عن بُعد ديني، وفي بعض الحالات يرتدينه من أجل الحصول على أمان اجتماعي (إزاء ضغط العائلة والمجتمع) كذلك دخل انتشاره عالم الأعمال والتجارة فأصبح مع مرور الوقت مدلول تجاري يسوّق لأشكال مختلفة من اللباس.. كما أن ارتدائه قد يكون عائقًا أمام قبولهم في الأعمال والوظائف، حسبما أظهرت دراسة لبنانية بعنوان «أحكام الحجاب عند المرأة المسلمة» (الجامعة اللبنانية/ معهد العلوم الاجتماعية / زحلة 2005)، استطلعت فيها الباحثة عينة من الفتيات الجامعيات بأن 50% منهن يجدن في ارتداء الحجاب عائقًا أمام قبولهن في الوظائف مقابل 50% لا يعتبرونه كذلك. وعن سبب ارتدائهم الحجاب؟ 66% أجبن لأسباب دينية، 14% تأثرًا بصديقات، 14% لقناعة شخصية، 6% كشرط زواج. وبالسياق ذاته بينت دراسة مسحية أُنجزت العام 2007 (المغرب) بعنوان «الإسلام اليومي: الطقوس والممارسات الدينية عند المغاربة» إلى أن نسبة 84% عبّرن عن تثمينهن لهذا اللباس إلا أن 17% من مجموع النسبة حددن اختيارهن للحجاب لأسباب غير دينية تتعلق بالموضة والتستر من المجتمع، فما دلالة هذا المؤشر؟ تشير مثل هذه المسألة إلى بداية انزياح الشعائر والالتزامات الدينية من مضمونها التعبّدي إلى مظهر اجتماعي وسلوك تقليدي كما حلل باحثو الاستطلاع[1].

(1) (عن مجلة إضافات العدد الثامن ـ خريف 2009، من مقالة لرشيد جرموني: التحولات القيمية بالمغرب: الشباب نموذجًا).

خلاصة

في حالات كثيرة قد يكون التراتب الإثني مركّبًا يشتمل على أكثر من متغير هيكلي: في المجتمع الأمريكي مثلًا هناك: **محور سلالي عنصري** تكرس بقوة القانون الوضعي (حيث يضع البيض في رأس الهرم وأبناء الأعراق الأخرى في رُتب تالية)، **ومحور ثقافي ـ لغوي**، الذي تكرس بدوره بقوة الأعراف والتقاليد غير المكتوبة، حيث تأتي الثقافة الإنجلوسكوسونية ومن ينتمون إليها في قمة الهرم الإثني، تليها الثقافة اللاتينية فالسلافية ثم الثقافات الأخرى غير الأوروبية، **ومحور ديني ـ طائفي**، حيث توجد ثلاث جماعات دينية رئيسة وهي البروتستانت والكاثوليك واليهود بشكل تراتبي وفق التسلسل المشار إليه. مع هذه التصنيفات والتي يوجد مثيل لها في دول أخرى من العالم لا يتوقّف الباحثون عند تباين المتغير الهيكلي الذي تنقسم على أساسه الجماعات بل يركّزون على نمط العلاقات القائمة و القواعد التي تحكم هذه العلاقات التي قد تكون في عدة أوجه منها:

ـ **الاندماج** (amalgamation) **ويظهر عندما تتخالط جماعات وافدة مع أخرى مقيمة ليظهر مع الزمن جيل جديد نتيجة التزاوج** (A+B+C=D).

ـ **الاستيعاب** (assimilation) **و هو العملية التي تمتثل بها جماعة معينة لمعايير جماعة أخرى حتى يصبحان متقاربان في العادات والتقاليد وأسلوب الحياة** (A+B+C=A).

ـ **الانفصال** (segregation) **ويعني في مدلوله فصل جماعة عن جماعة أخرى في وضعيات العمل/ الإقامة/ المناسبات الاجتماعية/ المدارس/ المقاهي والمطاعم/ وسائل النقل ودورات المياه..** (A+B+C= A+B+C).

ـ **الاعتراف** ((pluralism) **وهو نوع من التقديرالذي تظهره أقليات أو إثنيات تجاه بعضها البعض واحترام ما لدى الآخر من تراث ثقافي ـ اجتماعي خاص** (A B =A+B).

ـ **الاستعلائية** .(ethnocentrism) وهي نزعة التفوق والاستعلاء التي تنميها جماعة (إثنية) في أفرادها على غيرها من الجماعات التي تعيش معها في نفس المجتمع، هنا لا تريد أن تنفصل ولا أن تتصل وإنما تريد أن تبقى أفضل وأرقى (A:b,c,d....).

obeikandl.com

المصطلح الخامس
الأعراف والانحراف

يربط بعض الباحثين الأعراف بمفهوم «المعاييرالمبجّلة» (mores) التي تعني سننًا اجتماعية يضعها الناس بشكل يتطابق مع أنظمتهم الأخلاقية والمعيشية العامة، ويسيرون عليها حتى تصبح كمفاهيم متعارف عليها، «المتعارف عليه» لعلها الكلمة الأكثر تعبيرًا عن مفهوم العرف (NORMS) الذي يعني: أنماط السلوك المعتمدة في مجتمع/ موقف معين. لكن بعض الناس قد لا يروقها ما هو قائم وسائد، وهنا يصبح مدى قبول الناس للأعراف والمعايير غير محدد اجتماعيًا. حيث تتباين في مفاهيمها وأنظمتها لسبب أنها:

1) **تخضع لقانون النسبية** أي تختلف بين مجتمع وآخر فما يكون مقبولًا في مجتمع ما قد لا يكون سلوكًا سويًا في مجتمع آخر (مفهوم العيب واختلاف النظرة إلى أحكامه بين المجتمع الغربي والشرقي/ وضعية المساكنة) في أمريكا مثلًا الفتيات النحيلات ـ عرفًا ـ هن الأجمل وهناك مشكلة إذا ما بدونَ بدينات، بينما في نيجيريا وموريتانيا الشكل لا يثير قلقًا لدى أصحابه على الإطلاق بل إن معيار الجمال لديهن هو البدانة.

2) **تستند على خلفية اجتماعية** تكوّنت بفعل الزمن والتراث تسمى بالعادات الرائجة والتقاليد السائدة، لدرجة أصبحت هذه الخلفية بمثابة الموجه للسلوك المسموح أو غير المسموح، كالنظرة إلى العلاقات الجنسية قبل الزواج هي من الأمور التي تتناقض مع القيم والأعراف التي يحملها الناس منذ عدة قرون.

3) **تساهم برسم توقعات الفرد في المواقف الاجتماعية** ويكون هذا التوقع مقبولًا من الناس، يتعلّمه الفرد بالتجربة أو بالتنشئة وينبغي أن يسير عليه أو يتمثله حتى يجد القبول الاجتماعي، في الريف اللبناني مثلًا تعتبر المشاركة في العزاء واجب وأي تقصير في أدائه غير مستحب ويعتبر من يرفع الموسيقى قريبًا من أهل الفقيد أمرًا منكرًا وخرقًا للأعراف.

4) **ترشّد وتُوجّه أفعال البشر في العالم الاجتماعي**، فهي والقيم تعملان سويًّا على تشكيل الأسلوب الذي يتصرّف به أفراد جماعة/ ثقافة ما، إزاء ما يحيط بهم. ففي الثقافات التي تعلي من شأن الكرم وحسن الضيافة فإن المعايير الثقافية تؤكد التوقّعات بتقديم الهدايا مثلما تشدد على إنماط السلوك الاجتماعي تجاه الضيوف. كذلك في بعض المجتمعات الغربية نظام أعراف صارم يفترض الأخذ به وإلاّ هناك مس به، مثلًا:

1 ـ من غير اللائق أبدًا أن تطلب أحدهم بعد منتصف الليل عبر الهاتف.

2 ـ من غير اللائق أن ترفع الموسيقى في ساعات الصبح الأولى وإلا استُدعيت الشرطة.

3 ـ من الغرابة أن يتزوج أحدهم على الفور بعد أيام من الخطبة والتعارف.

4 ـ من المستهجن أن تبقى في دراستك الثانوية لخمس سنوات وأكثر.

تُفهم الأعراف ـ إذن ـ على أنها من العناصرالجوهرية في جميع الثقافات باعتبارها منظومة الأفكار غير المكتوبة التي تحدد ما يمكن الأخذ به والابتعاد عن ما يمجّه الناس، وهذه الأفكار ـ المنظومة ـ غالبًا ما تصف السلوك الحقيقي أكثر مما تصف السلوك المتوقع، إذ أن الأفعال وردود الأفعال والمواقف الاجتماعية التي يتمسّك بها الناس تعتمد على وجود المعايير ومدى اعتقادهم بها، فلو أخذنا مسألة: المجاملات الاجتماعية اليومية، بعض علماء الاجتماع ذهبوا إلى القول ـ وبعد دراسات مكثفة ـ أنه لا يوجد مجتمع بشري إلا ويأخذ بهذه المسألة، فتبادل أشكال متنوعة من السلع والخدمات المختلفة عبر مجموعة من الاتكالات المتبادلة هو ما يربط الأفراد بعضهم ببعض في

وحدات ذات كفاية عالية. لهذا يجد الناس أنفسهم في ظل الأعراف آخذين بقاعدة المسايرة التي تقول بأنه على أحدهم أن يقوم بسداد ما قدّمه شخص آخر له، (فإذا قدمت لنا سيّدة معروفًا ما علينا أن نرد جميل عرفانها، وإذا أرسل أحدهم هديّة لنا في عيد ميلادنا فعلينا أن نتذكّر عيد ميلاده بهدية من قبلنا، وإذا دَعانا زوجان لحفل فعلينا أن نتأكد من دعوتهما إلى إحدى حفلاتنا لاحقًا..) من هنا يعلق السوسيولوجي (مارسيل موس) في وصفه للضغوط الاجتماعية التي تحيط بعملية تبادل الهدايا في الثقافات البشرية المختلفة: «أنه يوجد إلزام بأن تُعطى وإلزام بأن تؤخذ وإلزام بأن تسدد». وهكذا سرت أعراف الهدايا منذ عصور ساحقة على أنها اشتراك سليم في شبكة الاحترام المتبادلة والمتوارثة منذ فجر التاريخ بغض النظر عن مقاصدها السلبية (استغلال/ خضوع/ ابتزاز/ مكر ودهاء.).

ويلعب في ترسيخ الأعراف وثباتها **عوامل خاصة** (تنطلق من الشخص نفسه) كأن يكون الشخص على قناعة تامة بالعرف أو يتمتع بمكانة هامة وسط جماعته أو يكون على علاقة موزونة مع جماعته، **وعوامل عامة** (تتعلق بالجماعة التي ينتمي إليها) عندما تكون الجماعة متماسكة ومتجانسة وتوفّر شبكة تواصل وتفاعل بين أفرادها، أو عندما يكون هناك اعتبار والتفات واهتمام من الأغلبية حول المعيار أو عندما تواجه ضغوطًا في الانحراف أو الفناء أو المواجهة لمعايير أخرى وافدة.

وقد اعتبر بعض الدارسين الأعراف هي جزء من الموروث الشعبي FOLKWAYS حيث من شأن هذا الموروث أن يشكّل سياق التصرفات اليومية والتوقعات المفترضة بين الناس سواء الذين يعرفون بعضهم (عبر تقدير المكانة لذوي الأدوار المهمة) أو سواء تجاه الذين لا يعرفون بعضهم (احترام/ عدم التدخل في شؤونهم..) إلا أن مثل هذا الاعتبار (الأعراف = موروث شعبي) قد يجعل الأعراف تبدو نسبية القيمة لا تُطبّق بنفس الاهتمام من كلّ الأشخاص، وربما منها ما يُتبع في مكان وفي أمكنة أخرى ليس لها أهمية، وبعضهم قد يتجنّب تطبيقها لقناعة منه بأنه «عف عليها الزمن»، ومثال على

ذلك ما هو معروف في عالمنا العربي بالمنزول، تقضي أعراف الضيافة وتراثنا الشعبي أن يحافظ الناس على شيء اسمه المنزول، فكيف يمكن تفسير ظاهرة المنزول سوسيولوجيًا؟.

من الناحية المعرفية السوسيولوجية يرتبط المنزول مع مفهوم الضيافة المعروف في بلادنا وبقدر ما تقدر الأعراف الضيافة يصبح المنزول حضوره هامًا، وخاصة في المجتمعات العربية (في الكويت هناك ما يعرف بالديوانية) القاسم المشترك بين جميع المنازيل هو الاتفاق على ضرورة تكريم الضيف باسم المجموعة وليس باسم الوجيه وحده فمن يأتي إلى المنزول كأنه أتى إلى منزل جميع أفراد العائلة أو العشيرة، لهذا تصبح المشاركة في خدمة المنزول ـ عرفًا ـ واجبًا معنويًا جماعيًا يطول أفراد المجتمع الذي يحل فيه المسافر ضيفًا، في دلالته هو مؤسسة اجتماعية عائلية قروية، تخضع لشبكة من علاقات القرابة ومن علاقات التعاضد الاجتماعي والاقتصادي ولكن أين أصبح المنزول الآن كموروث شعبي؟.

خضع واقع المنزول لتحولات البنية السياسية والإدارية ولسلسلة تغييرات أدخلتها الحياة الحديثة، لكن جوهر الوظيفة التي قام من أجلها المنزول كتأمين الصلة بين الجماعة والسلطة ولمّ شمل العائلة وفق ما يتداوله الناس بتعبير «البيت المفتوح» حين يحافظ أولاد العائلة المعروفة على تراث الضيافة والوجاهة، تبدل إلى حد ما مع دلالات تتجسد فيما يقيمه حاليًا بعض الزعماء السياسيين في لبنان بأكثر من منطقة. لأن المنزول بالنسبة لهم هو حلقة من حلقات السلطة السياسية، وهمزة وسط بامتياز يلعبها الزعيم أو الوجيه كي يبقى على صلة مع الأنصار أو يُبقي علاقة الناس بالسلطة مستمرة.

*** أنواع الأعراف:**

صنّف بعض علماء الاجتماع الأعراف في إطارين:

أولها: **الأعراف الرسمية** (formal norms) وهي المعايير الموضوعة كقواعد صارمة يجب الالتزام بها وإلا ثمة عقوبات في حال الاستخفاف بها،

فنظام الجامعة لجهة الحضور واحترام قوانينها والتزام مقرراتها هو أعراف أكاديمية رسمية يجب الأخذ بها. وترتدي الأعراف طابعها الرسمي عندما تُكتب وتقرر من قبل جماعة ما، وأي تجاوز لهذه الأعراف يُعاقب عليه، إنها بمثابة القانون الوضعي أو الضبط الاجتماعي الرسمي.

ثانيها: **الأعراف غير الرسمية**: (informal norms) وهي المعايير التي نحسّ بها، نستشعرها مع آخرين دون أن يطلب منا، نقوم بها تلقائيًا (عفويًا) دون أن تكون مكتوبة حيث نُلام إن لم نقوم بها وبالمقابل نحترم إذا فعلناها، كما هو الحال عندما تدخل صالة هادئة (سينما/ مسرح/ قاعة تقبل عزاء/ مكان واجب ديني..) يفترض منك التزام السكوت لأن الهدوء والصمت هو المعيار المتعارف عليه هنا.

في كلا الإطارين هناك ضرورة بالتزام الأعراف، وعندما ينتهك أحدهم عرفًا فإنه يحدث صدمة أو بلبلة في أوساطه، ولكن **متى ينتهك الناس الأعراف ولماذا؟ وماذا سيحدث فيما لو انتهك؟**.

الانتهاك بمفهومه المبسط تصرفٌ فيه خروجٌ عن السائد أو المعايير المتفق عليها.. إلا أن هذا الخروج عن ما هو سائد قد يكون مرفوضًا عالميًا ومستهجنًا اجتماعيًا (كزواج مثليي الجنس) وقد يكون هناك انتهاكًا صارخًا في تصرفات معيّنة لدى مجتمع دون آخر، في أمريكا يعتبر الإدمان على المخدرات أخطر انتهاك ضد المجتمع والناس، في الدول الإسلامية من يلعب القمار أو يشرب الكحول إنسان منتهك للأعراف والتعاليم الدينية، في بعض ديانات الهند من يتزوج بأكثر من امرأة يعاقبه القانون أشد العقوبات لأنه خرقٌ لنظام مقدس، من هنا يرى بعض علماء الاجتماع بأن مفهوم الانتهاك يرادف الانحراف، وقد يكون هناك لائحة من الانحرافات الواضحة بين جميع الناس إلا أن وقائع الحياة اليومية المعاصرة عدلت من نظرتنا أو مفهومنا للانحراف، إذ في الوقت الذي نجد فيه بأن البغاء ـ والذي ننظر عليه على أنه انحراف اجتماعي وأخلاقي صارخ كمجتمع محافظ ـ هو في بلدان متحررة عمل سياحي بامتياز يدر دخلًا مهمًا لأصحابه ولحركة البلد الاقتصادية...

كذلك في بعض الثقافات والمجتمعات:

- ✓ **من يخل بموعد قطعه لأحدهم انحراف عن مصداقية في احترام الوقت (يعني هو كاذب/ منحرف).**
- ✓ **من يقطع إشارة سير حمراء فذلك انحراف عن قانون المرور والسلامة.**
- ✓ **ومن يتجاوز صف انتظار إهانة بل انحراف (لأنه تعدى على اعتبارات الغير).**
- ✓ **وإذا ما تشاجر صبية وشاتموا بمضهم بكلمات بذيئة، فإنهم منحرفون عن الآداب والتربية.**

هذا يعني أن الناس يضعون أنفسهم في معتقدات تجاه المعايير المفترض اتباعها، فقد تكون منصفة في الاتباع وقد تكون مبالغة، كحال النساء والفتيات تجاه صورة جسدهن، حيث الرغبة الدائمة في البحث عن المعايير الهامة ليبدين على أجمل ما هنّ عليه، وفق ما يُعرف بأسطورة الجمال التي تسلب عقول الفتيات، تصل إلى حد اعتباره نمط حياة الكثيرات من العاملات في المجال العلائقي مع الناس، وعليهن أن يحافظن على هذا النمط مهما كلف الأمر وأي خروج عبثي (أكل أكثر من اللازم/ التصرف بشكل غير لائق في مكان عام/ عدم ممارسة الرياضة / عدم متابعة الموضة..) يُعتبر بمثابة انحراف عن النمط.

هناك التزام وهناك انحراف وكلاهما يتناقضان في المفهوم، فالأول يعني التمسك بتقليد، بنظام، بقانون، بعرف ما، وأي تهاون أو استخفاف في هذا التمسك قد يؤدي إلى انحراف، إلا أن مفهومي الانتهاك والالتزام يختلفان بدورهما بين ثقافة وأخرى وذلك تبعًا للعادات والتقاليد والأعراف السائدة وهذا ما جعل علماء الاجتماع يقرون بأن حدود الانحراف غير مُدركة لتنوّع أعماله، ولتشعّبه ما بين فردي وجماعي ومجتمعي عام، إذ من الصعب الحكم على تصرف معين بأنه منكر أو مستغرب أو مستهجن أو على أنه انحراف بحد ذاته لأنه قد يكون مقبولًا في وسط دون آخر..مثل هذا الرأي لا يمنع من

القول بأن هناك أمورًا ومسائل تبدو نافرةً جدًا كما هو الحال عند إقرار إيطاليا تشريع زواج الجنس الواحد الذي يُعتبر انحرافًا واضحًا عن السياق الطبيعي والاجتماعي والأخلاقي للحياة ولو أقرّه البرلمان. كذلك مسألة الاعتداء الجنسي والاغتصاب يظل انتهاكًا صارخًا على كيان شخص مهما كانت المبررات، يستدعي فعله عقوبة قاسية لأنها في جميع الثقافات انحراف، ولكن ماذا يعني تحديدًا الانحراف؟.

تعريف الانحراف:

إنه ذلك الفعل الشائن الذي يظهر بصورة انتهاك أو تجاوز صارخ أو ارتكاب للمحظور يحدث من جرائه مظاهر سيئة على صاحبه وعلى الآخرين. وإذا ما بالغ أحدهم في الانتهاك ـ بحسب تعريف معاجم العلوم الاجتماعية ـ يُوصم بالعار وينبذ ويرفض أو قد يعاقب. برأي بعض الباحثين لا يعني تعبير الانحراف: انحلال أو فساد بقدر ما يعني «**تصرف بعيد عن معايير الجماعة**» ولو تمثّل ذلك في أبسط تصرف يومي كما في حالة التأخر عن الصف في الجامعة فهو في بعض الأنظمة.. انحراف، وارتداء الجينز في حفل رسمي أو زفاف... انحراف، التقاعس عن التزام قطعته هو بمثابة انحراف، لكن علماء اجتماع آخرين وجدوا مغالاة في توصيف أفعال الانحراف بتصرفات يومية بسيطة لمجرد خروج الناس عن الإتكيت أو العرف السائد، لهذا يُقصرون تعريفهم للانحراف على أنه فعل جرمي عنيف يستحق العقوبة وذلك حفاظًا على ثبات المجتمع وسلامته، وهذا ما قصده السوسيولوجي (إميل دوركايم) الذي ربط بين الانحراف ومفهوم الاغتراب ANOMIE عبر حالة من «اللاأخلاقية» «normlessness» تحدث خلال فترات التغيير الاجتماعي أو عندما يحصل اضطرابات في المجتمع أو خلال وضع اقتصادي متأزم (وهذا سر القول بأن البطالة أم الرذائل) بحيث يصبح الناس أكثر إحباطًا، أكثر عدائية في مظاهر عنف أو جريمة أو انتحار، أما بالنسبة للسوسيولوجي (روبرت ميرتون) فإن الانحراف يتأتى ببساطة عندما لا نطيع أونحترم ونقدّر توقعاتنا الثقافية، ونستخفّ في الالتزام بالمعايير المجتمعية.

في كتب الخدمة الاجتماعية يشير الانحراف على أنه سلوك متعلم (مكتسب) مرتبط بتغير اجتماعي في عالم المنحرف، وقد يأتي بمثابة رد فعل دفاعي ضد القلق، يعمد إليه صاحبه بشيء من الزهو ليخفف من شعوره بالدونية. وكثيرًا ما يرد في كتب العلوم الاجتماعية ربط الانحراف بالأحداث وفق ما يعرف ب «انحراف الأحداث» أو «الأحداث المنحرفون»، الذي يحدث نتيجة الفشل في أداء الواجب أو ارتكاب لعمل سيئ أو خرق لقانون وانتهاك صارخ للأصول القانونية والأخلاقية من قبل المراهقين، ويندر أن يرتكب حدث معين جريمة دون أن يمر بمرحلة سابقة تبدو على سلوكه الاجتماعي مظاهر الخروج على قواعد المجتمع المتعارف عليها والإتيان بأفعال يأباها العرف السائد والتقاليد المستقرة، ويعرّف الحدث المعرض للانحراف على أنه:

1. الحدث الذي يعتاد الهروب من المدرسة.
2. الحدث الذي اشتهر عنه مخالطة رفاق السوء (اللصوص والأشرار).
3. الحدث الذي يشبّ على البطالة والجريمة والعنف.
4. الحدث الذي يسلك سلوكًا من شأنه الإضرار بنفسه وبغيره.
5. الحدث الذي يتغيب عن المنزل دون سبب معقول وموافقة الأهل.
6. من يأتي بأفعال شائنة أو مخلّة بالآداب. (من يعتاد التفوه بألفاظ بذيئة وفاحشة).
7. من ينام في الطرقات أو يمارس التسول وأعمال مثل مسح الأحذية و نوافذ السيارات.

وانطلاقًا من اعتبار الفعل المنحرف هو نمط السلوك المخالف للقيم والمعايير السائدة في المجتمع، تظهر علاقة الأعراف بالانحراف في أربعة صور هي:

1 . الانحراف الخطير: ويكون في أفعال سيئة يطال خطرها المجتمع

وأفراده كالسرقة والقتل وإدمان المخدرات.

2 . **الانحراف المؤذي**: وهو ما تقوم به فئات معينة غير منضبطة سلوكيًا أو لعِلّةٍ في تربيتهم كالاغتصاب والاعتداء على الأملاك والتدخين عند الصغار.

3 . **الانحراف المرفوض** وهو الفعل الذي يقوم به صاحبه في مكان عام بينما لا يكون مقبولًا أو مسموحًا به في مكان آخر (لباس البحر في الأماكن الرسمية / الموسيقى الصاخبة في أماكن الاستشفاء . .).

4 . **الانحراف المكروه** وهو يبلغ درجة معينة من التكرار عند صاحبه نتيجة حالات نفسية أو عصبية يمر بها (شرب الكحول بكثرة/ المقامرة / القيادة المتهورة. .).

يُرجع بعض علماء الاجتماع الانحراف إلى الإحباطات المتلاحقة في تحقيق الطموحات أو لوجود مسافة بين واقع الإنسان وعدم تحقيقه ذاته وفق الميول والرغبات، مما يدفعه إلى الانزلاق في مسالك الانحراف ويطلقون على هذا الاتجاه بنظرية الدفاع الاجتماعي، لأن المجتمع هو المسؤول الأول عن تعزيز المعايير وعندما يخفق في دوره المسؤول لجهة ترسيخ القيم يفتح الباب أمام الانحرافات السلوكية. فالمنحرف لا يصبح منحرفًا إلا لأنه عاش خبرات سيئة مع أفراد مجتمعه أو أسرته فيتصرّف بالانحراف كرد فعل استنكاري. كحال الشاب مثلًا في قريته قد لا يشعر بالحاجة الأساسية للنقود ولا يشعر بفارق بينه وبين بقية الشباب في القرية، ولكن عندما ينتقل إلى المدينة أو عالم الاغتراب، تختلف القيم عنده ويتحسس أهمية المال وحاجته إليه نظرًا لإمكانيات الإنفاق المفروضة عليه، وعندما لا يستطيع تأمينها إما أن تتحول أفكاره إلى الرثاء على ذاته أو إلى الحقد والغيرة، مما يولّد في نفسه الغبن والقهر حتى يقوده ذلك إلى الانحراف كأن يسرق أو يسطو على مخزن. . وقد يتطور معه الأمر حتى يصبح من أفراد العصابات وحملة السلاح.

* مظاهر الانحراف

تعتبر مظاهر العنف وترويج المخدرات والاعتداء الجنسي وجرائم القتل والرشوة والسرقة والابتزاز وصولًا إلى ما يُسمّى بانتهاكات الملكية الفكرية وأعمال القرصنة الإلكترونية واقتحام حسابات المصارف من الممارسات المندرجة ضمن مظاهر الانحراف، فمجمل هذه الظواهر وأخصّها الجريمة ترتبط ارتباطًا وثيقًا بالانحراف، حيث بينت دراسات عديدة علاقة متغير انتشار الجريمة في مظاهرها بمتغيرات أخرى منها:

☆ التفاوت الثقافي أو المناطقي، ففي المجتمعات التي يتواجد فيها أقليات متعددة متنافرة تنشط الأعمال غير الشرعية.

☆ كما تكثر معدلات الانحراف والجرائم في المناطق التي تعاني الحرمان المادي.

☆ كما يتعرض الأفراد المقيمون في الأحياء الفقيرة في ضواحي المدن لمستويات أعلى من خطر الجرائم قياسًا على من يسكنون في ضواحٍ أكثر رخاءً من الوجهة الاجتماعية أو الاقتصادية.

الشباب والانحراف:

هل يمكن القول أن بعض الأفراد أو الجماعات هم أكثر ميلًا من غيرهم لارتكاب الانحراف؟ يجيب علم الجريمة بالإيجاب، إذ تبين بالمتابعة العلمية وجود صلة بين مرتكبي الجريمة وضحاياها، فالذكور على سبيل المثال أكثر ميلًا من النساء إلى ارتكاب الجرائم، كما أن الشباب يرتكبون أعمالًا إجرامية أكثر من المتقدمين في السن، وعليه سنتوقف عند ظاهرتين من الانحراف في عالم الشباب: الجريمة المنظمة وظاهرة الدعارة:

1 ـ الشباب والجريمة: في أكثر مجتمعات العالم تنحصر الأعمال الجرمية في مسائل مثل: السرقة والسلب والاعتداء والاغتصاب وجرائم الشوارع والأزقة التي يكون أغلب مرتكبيها من الذكور الشباب. وكثيرًا ما

ترتكز وسائل الإعلام على ما تُسمّيه بالانحلال الأخلاقي وانهيار القيم كسبب لحدوثها في عالم الشباب. وتشير تقديرات إحصائية إلى أن معدل الجريمة يرتفع بشكل ملحوظ في أوساط الشباب عما هو عليه في فئات عمرية أخرى، حيث لم تعد مظاهر الانحراف مقتصرة بالنسبة لهم على تعاطي المخدرات و الهروب من الدراسة أو المشاركة في أحداث شغب وأعمال نهب، إنما تعدّى الأمر نحو ما يعرف **بالجرائم المنظّمة (سميت منظمة لأنها تتماثل في خصائصها العامة مع أنشطة العمل التجاري والإداري المعتاد ولأن لها امتداد عبر دول عديدة مع أشخاص محترفين في أساليب السطو وفق قوانين غير المشروعة)** مثل: تزوير وثائق، ممارسات البيع غير القانونية، التلاعب بخدمات الائتمان المالي، والعقارات والرشوة والاختلاس وأنشطة جرمية أخرى على كثير من الخطورة منها: المتاجرة بالسلاح والأطفال وغسيل الأموال وتزوير تأشيرات الدخول وتهريب الآثار وتهريب المهاجرين والمتاجرة بالأعضاء البشرية، وجرائم عبر الحدود التي تستخدم وسائل الاتصالات الحديثة لنقل أموال وأرصدة، ترويج لمشروعات استثمارية وهمية، بيع سلع مزيفة، انتهاك وسرقة أقراص مدمجة، اختلاس أرصدة من مؤسسات مصرفية وبنوك، التلاعب بحسابات الهاتف الشخصي. هذا فضلًا عن جرائم أخرى مثل: الخطف (البشري والطائرات) القرصنة البحرية، الإرهاب، جرائم البيئة (نقل مواد سامة) نقل المنتوجات الفنية القيمة (سرقة الإبداعات واللوحات النادرة).

2 ـ **الفتيات والبغاء**، يمكن تعريف البغاء بأنه تقديم المتعة الجنسية مقابل كسب مادي، وقد وُصفت قديمًا المرأة التي تقوم بهذا العمل بمصطلحات أخرى مثل: المحظيّة/ الغانية/ الجارية.. أما حديثًا فتتميّز بأن المرأة تقوم بدور ظرفي ـ منح اللذة الجنسية ـ لزبون دون أن يكون هناك معرفة شخصية مسبقة، ويحكم عمل البغايا مدى «الالتزام المهني» فيه حيث أن منهنّ من يمارسن البغاء بصورة مؤقتة ثم يتركن الدعارة، ومنهن تمارسه بصورة غير منتظمة للانتفاع بما يكسبنه لتعزيز دخل، وهناك بالمقابل فئة تمارسه بصورة دائمة باعتباره مصدرًا أساسيًا للعيش، من هنا نلاحظ بأن

البغاء يرتبط غالبًا بفقر حال النساء ويبرز كبديل للشغل، أي كعامل جنسي مأجور تلجأ إليه كثيرات من الفتيات المحتاجة والعاطلة عن العمل سيما في المناطق الفقيرة، ولا يمكن حصر البغاء في العامل الاقتصادي وحسب بل أصبح خدمة يقوم بها الفتيات بهدف الارتقاء إلى مستوى معيشي لائق (عبر تجميل الجسد واستخدام تقنيات الاستعراض والإغواء لإيقاع رجل مهم وقيام علاقة استثنائية معه)، وقد تنوعت طرق تقديم الخدمة الجنسية في أكثر من سياق فمنهنّ من يلتقطن الزبائن في الشارع (بائعات الهوى)، وهناك ما يعرف بفتيات الهاتف اللواتي يمكن استدعاؤهن بمكالمة هاتفية وفق أرقام معلنة على قنوات تلفزيونية مخصوصة، وهناك ما يعرف بفتيات الكتالوج، حيث تودع لدى الفنادق صورًا لفتيات من مختلف الجنسيات وعلى النزيل أن يختار الصورة ليتم استدعاؤها. وهناك المومسات العاملات في الأندية الليلية الخاصة، مثلما هناك مجموعة من النساء اللواتي يقدمن خدمات خاصة في محلات التدليك.

لقد أصبح البغاء ظاهرة منتشرة على نطاق واسع بين الفتيات والفتيان، النساء المتزوجات والمطلقات والطالبات والموظفات لدرجة بدأ البعض يتحدث عن اقتصاد البغاء كظاهرة خطيرة أخذت تنتشر حتى في مجتمعات معروفة بالمحافظة، كما كثر الحديث عن دوره في تنشيط حركة السياحة والاستثمار والاستهلاك وكأن الجمال رأسمال والجسد سلعة للاستهلاك وللعيش في الرفاهية وليس وسيلة لمجابهة الفقر والبطالة (**بالنسبة لفتيات متحدرات من طبقة اجتماعية متوسطة في بعض الدول العربية لا يشكل حلًا اضطراريًا لإعالة الذات والأسرة وإنما وسيلة للتمتع واللهو وللظهور بمظهر الغنى وحتى للهروب من تشدد أسري**).

ولكن السؤال المهم لماذا تنتشر هذه الظاهرة اليوم بشكل ظاهر خاصة في مجمل الدول العربية؟ إلى ما يعود السبب الأبرز: هل الفقر وحده هو الدافع؟ حول ذلك قامت الباحثة والأستاذة المغربية (فاطمة الزهراء أزرويل) بمقاربة هذه الظاهرة ميدانيًا عبر عينة من 60 فتاة وامرأة، ثم أصدرت نتائجها في كتاب بعنوان «البغاء أو الجسد المستباح» ارتكزت فيه على عشرات الشهادات من نساء

يمارسن البغاء، وحول أبرز العوامل المسببة له تقول: «البغاء جزء من انهيار شامل في القيم عرفته (مجتمعاتنا) خلال العقود الأخيرة، نتيجة الاختيارات السياسية والاقتصادية والاجتماعية التي اتبعت، ظواهر سلبية كثيرة تفشت في مجتمعنا كالرشوة وسرقة المال العام والمتاجرة في المخدرات والبغاء أحد هذه الظواهر»[1]، وقد رتبت الباحثة معطيات المستجوبات بحسب الأهمية التي كانت في الشهادات، كالتفكك العائلي في مختلف مستوياته، كأن تعيش طفلة صغيرة صراع الأبوين الدائم، وإذا ما حصل الطلاق، تعيش جحيم الحياة بعد الطلاق سواء تمثل ذلك في الصعوبات التي تعيشها الأسرة من أجل لقمة العيش، أو في تشريد المرأة والأطفال بعد الطلاق، وتكون البنت هي البكر أو تتابع دراستها في بداية الثانوية، وهناك حالة زواج الأب من أخرى أو الأم من آخر، فتعاني الطفلة المراهقة من كل الضغوط الممكنة من إحداهما، كالضرب أوالتعنيف أوالحرمان، وقد يكون الوالد فقيرًا، وقد يكون لها طفلان إذا كانت مطلقة، وترفض الأعمال الهامشية مثل الخدمة المنزلية أو ترفضها بمجرد أنها جميلة، ويكون الطريق سهلًا للبغاء...»[*].

خلاصة القول إذا كان الانحراف يعني بصورة عامة «عدم الامتثال» أو «عدم الانصياع» لمجموعة من الأعراف المقبولة لدى قطاع مهم من الناس في

(1) عن مجلة: «التجريد» المغربية، 8/ 8/ 2002.

(*) وفي هذا السياق أبرزت دراسة ميدانية حول «تجارة الجنس في اليمن» التي نفذها ملتقى المرأة للدراسات والتدريب ـ أن من يمارسن البغاء أو الدعارة لجأن لذلك بسبب افتقارهن للمال وبهدف الإنفاق على أنفسهن وأسرهن بمن فيهم الذكور، إلى جانب افتقارهن إلى من يهتم بهن ويكفاءة حياتهن ويعانين من مشاكل اجتماعية، ويتخذن من الشارع مأوى لهن، ويتعرضن لإغراءات الحياة في الفنادق. وأشارت الدراسة ـ التي شملت متهمات أمام المحاكم وكذا نزيلات السجون ـ إلى أن أعمار من يمارسن الدعارة والبغاء في الغالب تكون بين ١٨-٢٣ عامًا، و٤١ ٪ عازبات، ٢٩،٤٪ متزوجات، ٢٣،٥٪ مطلقات، ٥،٨ ٪ أرامل، وغالبيتهن بدون عمل في حين أن ١١،٧٪ يعملن ودخلهن لا يكفي كمصاريف للعائلة ومصاريف شخصية و ٥،٨ ٪ طالبات. وأشارت الدراسة إلى أن هناك مبحوثات قلن إنهن يمارسن الدعارة من أجل الصرف على إخوانهن الذكور العاطلين عن العمل وتسديد نفقات العلاج، وأوضحت أن غالبيتهن لديهن أسر ويقمن بإعالة الأسر والمتزوجات بعضهن زيجاتهن صورية وغطاء لامتهان الدعارة أو لأن دخل الزوج لا يكفي وقمن بإعالة الأسرة.

الجماعة، فإن الجريمة وانحراف الشباب نحو العنف والجنس يعتبران من أهم المظاهر التي تدل على الانحراف وعدم الامتثال للقيم خاصة بعدما تكاثرت النتائج الاجتماعية التي ينطوي عليها حال الانحراف من انتشار أمراض خطيرة كالسيدا واستغلال الأطفال والقاصرات وانتهاك حقوق الإنسان بشكل صارخ.

ولكن لماذا يعمد الناس إلى ارتكاب المحظور؟ بحسب دراسات علم الاجتماع، الانحراف موجود في الكائن الإنساني باعتباره الحد الذي يساعد على معرفة التصرف المناسب، فالولد الذي يرى أبوه يُوبّخه لأنه يتجشأ على الطعام أو يقذفه أو يعبث به يدرك أن مثل هذا التصرف غير لائق فيتجنّبه. كذلك الحال من يُعاقب بضبط من جراء السرعة في القيادة يدرك أنها خطيرة ويجب التنبه، والأمر سيّان بالنسبة للطالب الجامعي الذي يتأخر عن تسليم موعد مشروعه قد يخسر علامات تقدير وربما سنته الجامعية. لهذا تشدد كثير من الثقافات على الأعراف ومسائل الانحراف وضرورة احترامها وتقدير أهميتها، وأي استخفاف بها يعرّض صاحبها إلى جزاءات فعلية:

- ☆ في سنغافورة مثلًا يغرم الشخص الذي يمضغ العلكة في مكان عام أو يبصق على الطريق ب 50$ دولارًا أمريكيًا باعتباره أمرًا محظورًا، ومن لا يستخدم «السيفون» في الحمامات العامة بعد استعماله يغرم ب 95$ د.أ. أما من يطعم الطيور في الحدائق العامة فيحاسب بغرامة مالية تصل في حدها الأقصى 640$.
- ☆ في اليابان أحدثت مؤخرًا سجون خاصة للسائقين المتهورين، أما في بريطانيا فمنذ العام 1992 فإنها تعتمد أنظمة ضبط في أماكن التسوق والمصانع والطرقات العامة من خلال كاميرات مراقبة لترصد المخالفين للأنظمة والقوانين أو عند قيام أحدهم بأعمال النشل والاعتداء على أملاك عامة أو تحرش جنسي.
- ☆ في لبنان أجريتُ (المؤلف) استطلاعًا للرأي عن الضوابط الاجتماعية ودورها في المجتمع اللبناني، ولدى سؤال العينة عن أكثر الحالات تطلّبًا للضوابط والعقوبات، كانت الإجابة على الشكل التالي:

الحالة	الرقم الموزون (عدد التكرارات من المائة).
الكذب[1]	67
السرقة	52
الألفاظ البذيئة(شتم وكفر في الأماكن العامة)	34
علاقات جنسية غير مشروعة	32
الاستخفاف بالسلطة وعدم التزام القوانين	31
تمرد الشباب	19

* الضوابط الاجتماعية بين الأعراف والانحراف.

بات واضحًا أن التزام الناس بالأعراف يعود إلى فعل التنشئة الاجتماعية منذ الصغر، وتكون هذه الأعراف مقرونةً بآليات الجزاء تهيب بهم كي يعملوا بمقتضاها أو لينتهوا عن العصيان، وتضم منظومة الجزاء هذه جانبًا إيجابيًا يتمثل في الثواب على الأعمال الجيّدة والعقاب على التصرفات التي تحيد عن النموذج المحبّذ، ويمكن أن تُطبّق منظومة الجزاء هذه ـ إما رسميًا ـ عبر هيئات أو مؤسسات تضمن الاستمرار في اتباع المعايير مثل المحاكم والسجون ودور التأهيل، وإما ـ بصورة غير رسمية ـ كما في حالات الرفض والنبذ والفتور لهذا يأتي الحديث عن الضوابط الاجتماعية من الأهمية بمكان في هذا المجال.

* الضوابط الاجتماعية:

ما هو المقصود بالضوابط ومن الذي يحددها؟ هل القيم والأعراف والشرائع لها علاقة بذلك؟ كيف ومتى تُفرض وتُلزم؟ أسئلة كثيرة تطرح عن الضوابط التي هي مدار نقاش في إطار السوسيولوجيا والتربية وعلم النفس باعتبار: من يحق له أن يفرضها؟ ولما نحن ملزمون بها؟ وماذا يحدث إن لم نلتزم؟ سيما وأن مصطلح الضوابط الاجتماعية يعود بمفهومه إلى الآلية المتبعة لمنع تصرفات الفرد من أن يتمادى في أي خطأ أو انحراف داخل جماعته،

(1) ملاحظة: ذكر الكذب أكثرها باعتباره الغطاء الذي تمارس تحته مظاهر الآفات الاجتماعية، من خيانة/ تزوير/ مكر وخداع/ عدم الالتزام بما هو صواب/ التحول/ و.....

ولكن تبرز إشكالية من الذي يقرر الخطأ على أنه خطأ؟ بالملاحظة والمتابعة الدراسية تبين أن الإنسان في أي مجال/ وسط/ مجتمع، هو أمام جملة ضوابط:

- ✓ **في العائلة مثلًا يتربّى على واجب الطاعة للأبوين (احترام / التزام / طاعة).**
- ✓ **مع الرفاق وفي مكان ما ملزم التحرك وفق أصول ومعايير (احترام الخصوصيات ...).**
- ✓ **في الجامعة هناك نظام تعامل مضبوط يجب احترامه لجهة التسجيل/ الحضور/ التدريس/ ..(تقدير الانضباط).**
- ✓ **في أماكن العمل محكوم فعليًا بجملة التزامات ..(نظام العمل / سياسة المؤسسة / ...).**
- ✓ **تجاه الدوله ومؤسساتها هناك مسؤوليات/ حقوق / واجبات ومن الضروري الالتزام بها كي تتكرس المواطنة (مراعاة القوانين).**

هذا يشير إلى أن الضوابط هي «السياق المنظّم لحياتنا سواءً كان ذلك مناسبًا لنا أو لم يناسبنا» لأنها في كثير من المواقع تضبط إيقاع حياتنا/ تفاعلنا/ تواصلنا، وعليه نحن مدفوعون إلى أن نحترم الضوابط لسبب ما تقدمه من منفعة اجتماعية عامة وحفاظًا على صيرورة حياة مفترضة.. قد لا يرى المرء للوهلة هذه المنفعة والسلامة إلا أنه وعلى المدى البعيد تبرز أهميتها لجهة الأمان والاستقرار الذي توفره. ويمكن أن نلاحظ ذلك بسهولة من خلال تعليمات الشرطة أثناء الأحداث الأمنية الطارئة أو إزاء كوارث طبيعية مرتقبة.. بضرورة الالتزام حرصًا على السلامة المدنية.

أنواع الضوابط:

انطلاقًا من اعتبار الضوابط هي **القبول الطوعي للقوانين والأحكام**

واعتماد جميع الأعراف والقيم، والإقرار بوجود أنظمة اجتماعية متعارف عليها.. ترتدي الضوابط الاجتماعية وبرأي السوسيولوجيين وجهين:

1) **الضبط الاجتماعي غير الرسمي**: ويتم بفعل التقاليد والقواعد الاجتماعية المتواترة بفعل التربية القائمة على شبكة من الأخلاق والقيم، ويمكن ملاحظة هذا النوع من الضوابط في المجتمعات المغلقة إزاء أي حادثة اجتماعية أو شائنة لاأخلاقية، كيف يتحرك عندها المعنيون (الوجهاء/ أهل الخير/ كبير القوم/ شيخ القبيلة/ رجل الدين) لتسوية الأمور وفق ما يعرف بـ «التوفيق» (أي تسوية الخلافات عن طريق المجاملات)، من هنا يرى بعض علماء الاجتماع أن المجتمع الذي تتوفر لديه مظاهر الضبط الاجتماعي غير الرسمي (الضمير الواعي/ العرف/ احترام ذوي المكانة/ الخوف من العيب) نادرًا ما يعرف التفسخ الاجتماعي ومظاهره كالخلافات الزوجية/ الحد من تمادي ظاهرة الثأر عبر المصالحة ودفع دية القتيل.

2) **الضبط الاجتماعي الرسمي**: يتجلى هذا الضبط عبر مؤسسات وهيئات ولكنه يتحرك عندما يخف و ينعدم فعل وتأثير الضوابط غير الرسمية من خلال: المحاكم/ تدخل الشرطة/ قانون وضعي/ توقيف وسجون التي غالبًا ما نجدها في المجتمعات التي تشهد تبادلًا في المصالح المادية وحياة مدنية حيث فرص الانحراف ممكنة مع ضعف الترابط الأسري وتشرد الأحداث وتمرد الشباب وانتشار الدعارة.

يرى بعض الباحثين أن أساليب الضبط الاجتماعي غير الرسمي (الأخلاق/ الدين/ القيم/ الضمير/ الجماعات الأولية..) أكثر كفاءة ومقدرة في الرقابة على سلوك الأفراد من الأساليب الرسمية (القهر/العقوبة/ التحذير) لماذا؟ لأن تصرفات الناس تعتمد على ما يتحلى به المرء ومما يوجد لديه من وعي قيمي مخزون في اللاشعور (الأنا الأعلى) ومثل هذا الوعي المتجمع بفعل التربية من الآباء وأولياء الأمور تكون شديدة في أحكامها...

*** العقوبة:**

وُجدت لتمنع التمادي في الخطأ وتحول دون تفشي الآفات الاجتماعية والأفعال الشاذة في المجتمع.

1 ـ إما عن طريق توجيه الملاحظات والتعليمات والتنبيهات والتعنيف والضرب التأديبي إزاء من يستخف بقيم أو بعرف ما، (في بعض الثقافات يعتبر ضرب الأولاد أو صفعهم نوعًا من الجزاء المطلوب لتأديبهم..).

2 ـ وإما عن طريق الإجراءات الرسمية التي تتولاها هيئات الضبط الرسمية (الشرطة/ المحكمة/ المراكز التأهيلية/ المؤسسات الدينية/ .) حيث تلعب دورًا تأديبيًا عبر محاسبة المرء وإعادته سويًّا إلى المجتمع.

ويوضح بعض الباحثين أن العقوبة الرسمية تُفرض كتأديب وتغريم عندما يتقاعس دور الضوابط غير الرسمية، فعندما تحدث مشكلة اجتماعية وتمتد آثارها وتصبح خطرًا على المجتمع لا تنفع عندها العقوبات التأديبية الخفيفة بل يتطلب الأمر عندها أكثر من عقوبة وذلك بحسب الانحراف الذي ارتكب، فقد تكون:

1 . **عقوبة دينية**: هذا النوع من الجزاء محفور في نفوس الناس إذ أن الجزاء الديني مرجعه الكتب السماوية التي فيها الكثير من الوصايا التي تحمل في طياتها التهديد والوعيد والقصاص لمن يجهل بالتعاليم، فالمـفّه لبعض الشرائع مثلًا يُعاقب إما بالرجم والسارق بقطع اليد والقصاص بالقتل للقاتل أوالحرم الكنـي..).

2 . **عقوبة تشريعية**: وهي القوانين الوضعية والنصوص التشريعية التي وضعت لتبين حق كل فرد في المجتمع، ومن يتعدّى على هذا الحق ثمة عقوبة منتظرة على مستوى الجرم، هذا النوع من العقوبات وجد لحماية المجتمع من الفوضى وتـسلّط الأقوياء على الضعفاء.

3 . **عقوبة اجتماعية**: وتتمثل في صورة المجتمع ككل الذي يُعاقب غالبًا في مجالات معينة كالنبذ، التشهير الإعلامي، تجنّبه كمشارك في جماعات ومناسبات، حرمانه من امتيازات.

4 . **عقوبة أخلاقية**: قد يدفع المرء إزاء تصرّف شائن أو انحراف، ثمنًا لمخالفته الأعراف من سمعته وهيبته، من مركزه الاجتماعي، أو من سلامته النفسية عبر ما يعرف بوخز الضمير والشعور بالندم، أو جلد الذات ذهنيًا ومحاسبتها على ما اقترفت من أمور كان بغنى عنها، كحال الموظف النزيه الذي غُرّر به وارتشي، أو قيام أحدهم بنميمة فأحدثت خلافًا كبيرًا لم تحمد عواقبه، أو حال الحامل التي عمدت إلى الإجهاض وبالسياق ذاته يمكن تصور حالة الذي يتخذ قرارًا بموت رحيم.

ولكن السؤال الأهم لماذا نعاقب وليس فقط كيف؟ هل يمكن للعقوبة أن تحول دون تكرار الفعل؟ إذا كان هناك إجماع على أن الانحراف والجريمة توجبان العقاب فإن هناك اختلافًا حول العقاب وأسلوبه ودرجته والأطراف التي يحق لها القيام بذلك..

إجابة على السؤال المتقدم يقدم عالم الاجتماع الكندي (MAURICE CUSSON) تحليلاته وآراؤه حول العقوبة في كتاب له بهذا العنوان، حيث يشير إلى أن العقوبة تؤدي وظيفتين للمجتمع وأفراده هما الأمن والعدالة.

فبالنسبة **لوظيفة الأمن** من شأن العقوبة أن تحدث على الجناة تأثيرًا ردعيًا مزدوجًا سواء بالنسبة للفاعل كقصاص أو بالنسبة لآخرين تحدثهم أنفسهم بارتكاب جرائم وانحرافات فتكون العبرة في الجاني، كما يمكن لعقاب الجناة في بعض الحالات بالسجن مثلًا أن يؤدي إلى حماية المجتمع من الأفراد ذوي السلوك الإجرامي الخطير على سلامتهم وأمنهم. وهذه مسألة بديهية في كل المجتمعات على حد سواء قديمها وحديثها، فالمجتمعات البدائية مثلًا طالما لجأت إلى الثأر وسيلة لمعاقبة الجاني، بينما تستعمل المجتمعات الحديثة السجون ومراكز التأهيل والإصلاح والعقوبات المالية والإعدام والتأبيد والأشغال الشاقة إذا كان الجرم كبيرًا.

أما بالنسبة **لوظيفة العدالة** فيقترح المؤلف بديلًا لتحقيق مبدأ العدالة بين طرفي الإجرام أو الانحراف ويتمثل في البحث عن صيغة قانونية وفقًا للأعراف والتقاليد السائدة وأفضل السبل في رأي الباحث لإقامة عدالة متزنة في القضايا الجنائية هو اللجوء إلى لغة الحوار بين الأطراف المعنية (الضحية والجاني)

سيما وأن هناك عوامل عدة ينبغي أخذها بعين الاعتبار عند إنزال العقوبة بالجاني، وهي: مدى مسؤولية الجاني (المنحرف) في ارتكاب جريمته وبأن درجة عقوبة المجرم يجب أن تكون متناسبة مع طبيعة الجريمة/ الانحراف الذي ارتكبه ضد الضحية ومدى الأضرار النفسية والصحية والاجتماعية التي ألحقها إجرامه بالضحية، وفيما إذا كانت لديه سوابق جنائية أم لا.

*** إلى أي مدى يمكن اعتبار السلوك غير الشريف انحراف عن المعيار وبحاجة إلى عملية ضبط؟.**

من نماذج السلوك غير الشريف تذكر المهن التي تدور حول الربح السريع بالوسائل السهلة بدون خرق للقوانين بشكل صريح إنما من خلال التحايل عليها، حيث يعمل نفر من الناس بشكل احترافي في أعمال سهلة مربحة دون الوقوع في فخ السلوك الجانح وينجحون في قلب المفاهيم التي دفعتهم للقيام بهذه الأعمال حتى تبدو وكأنها كانت بحكم الضرورة، كذلك هناك من يخرج عن ما هو شائع من قبول طوعي للقواعد لعدم اقتناعه بها ويقدّم التبريرات الكافية التي جعلته يخرج عنها، فهي بالنسبة له ليست مستكرة أو ممنوعة أو محظورة وإلا لما كانت سائدة في مجتمعات أخرى مختلفة عن بيئتهم ومجتمعهم.

هنا فئة جانحة تحت ستار من التكيّف الاجتماعي السطحي، المبرّر بأعذار أقبح من ارتكابها، عملًا بالمبدأ الميكافيللي: **الغاية تبرر الوسيلة**، فأمورهم تتعلق بالغايات أكثر مما تتعلق بالوسائل، فهم يريدون الوصول إلى غاياتهم ومنافعهم الخاصة ولكن عبر طرق مشكوك في أمرها، أيًّا كان أمر السلوك (التصرف) فإنه بحاجة إلى قاعدة (معيار/عرف) وإلى سلطة (ضبط) تراقب تنفيذه، فإذا غابت الرقابة كثُر الاعتداء على القاعدة وإذا غاب التعاضد الاجتماعي كثر السلوك غير الشريف الذي قد يتحول مع الوقت إلى انحرافات خطيرة. لكن النقاش عند العاملين في الدراسات الاجتماعية لا زال مفتوحًا وذلك لاختلاف وجهتي النظر بين: **البحث لماذا ينحرف الناس؟ إلى البحث ما الذي يدفع الناس إلى الانحراف؟** في الوقت الذي يُرجع كثير من الباحثين

التصرفات المنحرفة إلى شخص مرتكبها، هناك باحثون آخرون يعتبرون مسؤولية الانحراف ليست محض شخصية وإنما هناك مسؤولية اجتماعية أيضًا في حدوثها، ذلك أن كثير من حالات الانحراف تكون كرد فعل على فعل (التلامذة المشاغبون.. هل هم يشاغبون ويعمدون إلى السلوك غير الشريف من تلقاء ذاتهم أو كرد فعل على ممارسة قهرية يمرون بها؟) وبالسياق ذاته بالنسبة للناس الذين ينقصهم اللطف والتهذيب تصبح فظاظتهم وتصرفاتهم مثيرة للريبة. قد يكون الجواب على تصرفاتهم بديهيًا وهو أن أمهاتهم لم يربينّهم تربية صالحة، لكن ثمة أسباب أخرى خلف ذلك «السلوك غير الشريف» الذي يقوم به بعضهم وهو أن الناس نتاج الأمكنة التي يأتون منها، ونتاج القيم السائدة في بيئتهم ونتاج المعاملة حيث يعملون، ذلك أن القيم والمناخ الاجتماعي له تأثير كبير على سلوك الأفراد.

الوصم الاجتماعي:

تقول العامة عندما يتصرف أحدهم بعمل أرعن: «أنه وصمة عار على جبينه»؟ إلى ما يرمز مثل هذا التعبير؟ ماذا يعني الوصم (stigma)؟ هو نعت بشع يرافق الذين ارتكبوا عيبًا ما، في مختلف التصرفات يحرص الناس ليس على أن يكونوا في المظهر اللائق وحسب وإنما في صورة الذات النقية (سمعة نظيفة) ووفق هذا المنظور يأخذ الحفاظ على «ماء الوجه» دلالته الذي يرمز افتقاده إلى الخجل الاجتماعي الذي وقع فيه صاحبه. وعندما تُخدش الصورة الاجتماعية بفعل مسابٍ للآداب تصبح «موصومة». وهذا قصده أحد السوسيولوجيين عند تعريفه الوصم بأنه لصقة بيان المحتوى (label) التي تشير إلى انخفاض قيمة المرء إزاء جماعته الذي يمكن أن يكون:

* **إما معنويًا** حيث يصبح الفعل المنافي الذي ارتكبه بمثابة «اللعنة» التي ترافقه طوال حياته رغم توبته عنه، وأحيانًا قد لا يكون له علاقة به إنما هو مجرد «حكم قاس» تراكم مع الزمن ليحمل بعضهم وزر بعض من سبقه (جده الذي حرق/ أبوه الذي سرق/ ...هذه العائلة معروف عنها.../ أساس بيتهم قائم على ...).

* وإما اجتماعيًا حيث تهبط مكانته الاجتماعية ويُدرج على اللائحة السوداء، لأنه خالف الأعراف فيتجنب الناس التعامل معه، حتى يشعر بالعزلة (ويلاحظ ذلك مع عدم تزويج الناس بناتهم للخارجين عن القانون أو لمن سمعتهم غير محمودة أو ممن ارتكب جناية) ليصبح مع الوقت «إنسانًا غير سوي»، ولعل النظرة إلى من هم بشرتهم سوداء لازال يشوبها كثير من التحامل رغم التقدم الحضاري والمعرفي وحقوق الإنسان[1].

ورغم أنه ليس من السهل أن يتخلص المرء من صفات دمغته، ورغم أن كثيرون يجهدون كي يتخلّصوا مما علق بهم من صفات سيئة منسوبة إليهم، يبقى مفهوم الوصم وإطلاق مؤثراته نسبي في واقعه، ذلك أنه إذا كان الوصم مرتبط بفعل العيب فإن العيب ذاته غير مضبوطًا بالمعنى والفعل والدلالة.. فما يمكن اعتباره هنا عيبًا قد لا يكون بالدلالة ذاتها لدى مجتمع آخر وما هو موجود ومتعارف عليه في مجتمع معين قد لا يؤخذ به في مجتمع آخر، تختلف النظرة تبعًا للثقافة والعرف السائد بطبيعة الحال، فالأشخاص الذين يصابون بمرض السيدا مثلًا في مجتمعات «هو مريض» تستلزم معالجته، وفي مجتمعات أخرى «هو إنسان وسخ» وتكال عليه الشتائم، ويصبح بنظر هذا المجتمع موصوم اجتماعيًا (والوصم المستخدم هنا هو بالمعنى الفعلي للكلمة أي فصل الفرد المريض وعزله عن بقية المجتمع وإلصاق وصفات مشينة به، مما يجعل النظر إليه بعد الوصم نظرات الشك والعداء من تصرفاته ومسلكياته) وعلى هذا الأساس فإن جانبًا من المجتمع يعتبر أن المريض هو المسؤول الأول عما أصابه ولا يمنحونه في أغلب الأحيان العطف والعناية والمساعدة (كما هو الحال مع المصاب بمرض خبيث) أو الحقوق والامتيازات التي ينطوي عليها المريض العادي وتبرز هنا إشكالية: أيعالج لأنه مريض أم يُنبذ لأنه هو من جنى على نفسه؟.

(1) فقد وصل الأمر بأن ينسب ما هو غير محبب إلى الشيء الأسود وإلى الأبيض كل شيء جيد وطيب وطاهر، فتفسير كلمة BLACK في أي قاموس لها المعاني التالية: gloomy, forbiding, destitute of moral light, evil, threating ,clouded with anger,dismal.... في حين تشير كلمة WHITE إلى ما هو نقيض ذلك.